العلامة السيد محمد تقي المدرسي

الإسلام: ثورة اقتصادية

السيّد محمّد تقي المدرّسي

الإسلام: ثورة اقتصاديّة

اسم الكتاب : الاسلام ثورة اقتصادية
المؤلف : العلامة السيد محمد تقي المدرسي
الناشر : المركز الثقافي الاسلامي
عدد النسخ : ٥٠٠٠ نسخة
الطبعة : الثالثة ١٤٠٦هـ ١٩٨٥م
الثمن : ١٥ تومان

بسم الله الرحمن الرحيم

الكتاب والمؤلف

•

إن حقيقة كبيرة واحدة بقيت بعيدة عن « وعي » الأمة الأسلامية وكانت الجرثومة الخبيثة لكل مآسيها الراهنة .

تلك الحقيقة هي ان العالم الذي يحيط بها ـ عالم مادي تلعب فيه الثروة دوراً رئيسياً .

وبالرغم من ان ثلث « النقد العالمي » سيكون من نصيب الأمة الأسلامية في بداية العقد الثمانين .

وبالرغم من ان « الكتلة الإقتصادية الإسلامية » لو قدر لها ان تتحقق ستكون أكبر وأغنى كتلة في العالم.

وستلعب دوراً بارزاً في رسم خريطة العالم السياسية والاقتصادية .

وستصبح مآسينا الراهنة آنئذ أحاديث تاريخية يقرؤها أبناؤنا بدهشة - وربما بسخرية !!

بالرغم من كل ذلك . فان « التنمية الاقتصادية » لا زالت تقع في مؤخرة « تطلعاتنا » الحضارية الـتي قد نتحدث عنها – ولكن قليلاً ما نعمل لها بجد ! أو نفكر لهـــا بعقل أو نخطط لها بروية .

كيف ان العالم اليوم أصبح « هيكلاً إقتصادياً » وكيف أن عوامل التاريخ انسحبت من الميدان لتقدم مواقعها للعامـــل الإقتصادي فقط وكيف يجب أن نعمل في هذا العالم وبين النظريات المطروحة أمامنا في موضوع « التنمية الأقتصادية » ما هي النظرية الأوفق بنا والانسب لقيمنا ومبادئنا من ناحيـــة ولامكانياتنا ومواردنا من ناحية ثانية .

وأخيراً ما هي النظرية الثالثة التي تبحث عنها الدول النامية عموماً والدول الاسلامية بوجه خاص والتي تقع في الوسط بـين الاشتراكية والرأسمالية .

وما هي مناهجها – وبرامجها وخيراتها وصعوباتها .

هذه الاسئلة وعشرات أمثالها – تشكل اطار الحقيقة الـتى تجاهلتها الامة الاسلامية أو لا أقل لم تستوعبها بعمق .

وهي بالضبط موضوع هذا الكتاب الذي يعتبر أول كتاب من نوعه تناول موضوع التنمية الاقتصادية بالطريقة الإسلامية المتناسبة مع واقع الأمة – وظروفها الراهنة .

والمؤلف :

هو سماحة العلامة الحجة السيد محمد تقي المدرسي ، صاحب أكثر من ١٦ كتاباً ودراسة موضوعية في مختلف الشؤون الفكرية ، والإسلامية ..

والعلامة المدرسي في الحقيقة ، أغنى من أن يعرف ، فهو اليوم أحد المفكرين الاسلاميين البارزين الذين طلعوا بأفكار اسلامية ناضجة جداً في التغيير والاصلاح والنهوض بالامة .

والكتاب الحاضر : هو أحد تلكم الافكار القيمة التي يطرحها على المجتمع ... والذي يثبت سماحته من خلالها : أن نهوض الأمة الإسلامية الاقتصادي ، لا يمكن أن يتم بالوجه الأكمل ، إلا إذا مر عبر الثقافة السليمة ، والتي لاتتوفر إلا بالاسلام وفي الاسلام.

الإسلام ثورة إقتصادية

لماذا هذا الكتاب ؟

بسم الله الرحمن الرحيم

ـ الحمد لله رب العالمين وصلى الله على محمد وآله المعصومين .

لعل السمة البارزة للعصر الذي نعيشه هي المادية المتطرفة العارية التي نبذت عن نفسها كل الأقنعة الايديولوجية ، وظهرت بلونها الطبيعي الذي هو لون ـ المال - الذي تعبده وتخضع لتوجيهه .

لقد ماعت كل الشعارات وبرز شعار واحد هو الحصول على أكبر قدر ممكن من المال .

فبعد الهدايا الأمريكية « لعملاقي » الشرق : الصين والروس !

وبعد استجابة الأخيرين لشروط أمريكا تحت بريق الدولار الأزرق !

سقط القناع الايديولوجي الذي تقمصته الدول الاشتراكية

وتبين ان كل الصيد كان في جلد الفدي ، وان تلك الشعارات تكن سوى بعض الأسلحة المستخدمة في الحرب الاقتصادية وبعد انتهائها ـ انتهى كل شيء !

وذلك يدل على مدى طغيان المادية على شعوب الأرض وفي ذات الوقت على مدى أهمية التنمية الاقتصادية لكل شعب أراد «البقاء» حياً يتنفس في هذا الجو المتسمم بغازات المادية الخانقة.

لا مجال للنظريات :

في هذا العالم هل يمكن للأمة الأسلامية أن تعيش التخلف والنقص ؟فتصبح طعمة سائغة لعمالقة العالم الحمر والبيض والصفر.

أم ان عليها أن توظف كل امكاناتها في سبيل التقدم المادي الذي يجعلها في مصاف عمالقة الأرض أو متقدمة عليهم ؟

الاجابة النظرية على هذا السؤال بسيطة جداً ، ولكن لم يبق اليوم محل للنظريات ..

علينا أن نجيب عملياً على هدا السؤال الذي يترجم تحدي العالم لنا بكل عنف وإصرار .

علينا ان نستنبط الخطط المدروسة من واقعنا الديني والتاريخي والجغرافي وأخيراً الاقتصادي .

والسؤال لماذا من واقعنا وليس من أي مكان آخر ؟

لأن الثوب الذي خيط على قد الآخرين،إما أن يصبح عليك ضيقاً أو فضفاضاً وبالتالي لا تستريح فيه أبداً .

ان الأنظمة الغربية صيغت لتعالج الواقع الغربي بينما صيغت أو عدلت الانظمة الشرقية لتلائم ظروف الشرق وإذا حولناها إلى أنفسنا تهنا فيها .. كما تاهت قبلنا أمـــم كثيرة في الارض أرادت أن تقلد مشية الآخرين فسقطت جانباً .

ونحن إذ ندعو إلى مراجعــة واقعنا الديني أو التاريخي لا ندعو إلى تطبيق كل التفاصيل التي عاشتها أمتنا قديماً إذ أنذلك أيضاً نوع من التقليد الاعمى .

انما ندعو إلى استنباط الحلول الصحيحة من مبادئنا الدينية التي لا تتطور لانها مباديء عامة ومطلقة وموصى بها من قبل الله العليم .

ثم الاهتداء بضوء التجارب التطبيقية لهذه المباديء دون التقليد لها .

ولكن هل فعلنا نحن مثل ذلك ؟

نجيب بأسف شديد : لا والدليل البسيط على ذلك :

افتقار المكتبة الإسلامية إلىدراساتتعالجالتنمية الاقتصادية المناسبة لواقعنا الحضاري بالرغم من توفر نوعـــين من الكتب

الاقتصادية فيها نوع يعالج الاقتصاد الإسلامي من نواح أخرى « توزيع الثروات مثلاً » ونوع يبحث عن التنمية الاقتصادية ، على طريقة الآخرين « الشيوعية – أو الرأسمالية » .

ولافتقار المكتبة الإسلامية إلى مثل هذه الدراسات زعم الكثيرون وربما يكونون من المفكرين الإسلاميين

زعموا أن الإسلام – فقير إلى « مناهج في التنمية » بينما الإسلام–كما سيلاحظ خلال دراستنا هذه–أيسر المناهج وأسرعها انجازاً للتنمية من النظم المادية لان الاسلام يثير جميع الدوافع الإنسانية – العاطفية والعقلية والروحية – ويوظفها في اشاعة الرخاء،كما ويشرع للحياة الإجتماعية نظماً من شأنها أن تيسر عملية النمو الأقتصادي ويسن للحياة النفسية مناهج تربوية من شأنها اذابة العقد النفسية والصفات الرذيلة التي تقف عقبة في طريق العمل الإيجابي البناء .

بالاضافة إلى كل ذلك يمنح الإسلام الكرامة التامة للإنسان حتى وهو في حالة البناء الاقتصادي فلا يسلب الحريات كما لا يجيز عبادة الشهوات . بينما يتورط فيهما كل من الشيوعية والرأسمالية بحجة أن ظروف البناء تفرض سلب الكرامة البشرية (سواء بنهب حرياته أو بعبادة شهواته)لأنهم كما يقولون ظروف استثنائية لا نستطيع أن نهتم فيها بغير البناء الاقتصادي .

بينما الإسلام يقول أن الوسيلة البنائية يجب أن تتناسب مع

الأهداف النهائية والهدف من البناء اشاعة الرخاء وتثبيت الكرامة .

فلا بد أن يتحقق هذا الهدف بوسيلة تتناسب معه، أي بوسيلة لا تقتل الرخاء أو تسلب الكرامة .

ضياع الاعلام للمنهج الاسلامي :

والسؤال المطروح في الساحة هو :

إذا كانت مناهج الإسلام في التنمية أيسر وأسرع انجازاً فلماذا لم يأخذ بها العالم وهو يبحث عن أفضل وسيلة للتقدم الإقتصادي دون النظر إلى جذورها الفكرية ؟ والجواب أن افتقار المناهج الإسلامية للدراسة العصرية العميقة هو أهم العوامل التي منعت الإنسان من تطبيقها والإنسان لا يبحث اليوم عن مناهج في بطون التاريخ بقدر ما يبادر إلى تطبيق المناهج الأكثر شيوعاً أو الأكثر أنصاراً !

إن الحركة الشيوعية العالمية تبنت الدعاية لمناهج التنمية الاشتراكية واستخدمت في سبيل ذلك كل وسائل الاعلام وحتى اليوم حيث تستولي الشيوعية على نصف العالم تقريباً ، تنشر الشيوعية في عام واحد (١٩٧٢ م)(٧٤٫٦١١) نوعاً من الكتب الاعلامية !

ويحتل لينين المرتبة الأولى بين آلاف المفكرين والسياسيين في نشر مؤلفاته التي طبعت في (٤٨٠) لغة وبمقدار خمسين مليون نسخة خلال عام « ٧٢ » م . بينما لم يفعل المسلمون مقدار ذلك بالنسبة إلى الإسلام أو قادة الإسلام .

فهل يكون تمسك العالم بالشيوعية عجيباً ؟ !

أو يكون رفض العالم للمناهج الإسلامية مثار سؤال ونحن لم ننشر خلال العام الماضي سوى كتاب واحد بالنسبة إلى ثلاثة آلاف كتاب نشرتها الشيوعية ؟ !

واجب انساني :

كذلك يكون نشر دراسات عن الإسلام والاقتصاد الإسلامي واجباً انسانياً ، يدعو اليه تطلع البشر نحو نظام يحقق التقدم ، والكرامة ، وبسرعة فائقة .

والكتاب الذي بين أيدينا يهدف وضع أولى الخطوات على درب الدراسات العلمية المسهبة التي تتناول موضوع التنمية الاقتصادية في الإسلام والتي نأمل أن تساعد بلادنا على التقدم السريع .

ولكن بما ان الإسلام ـ دين ـ خالد فهو لا يعطي الإنسان سوى الخطوط العريضة لاطار اقتصادي ـ متماسك ـ يتطور محتواه مع الزمن الصاعد ـ ووفق تطور الظروف ـ ويدع للاخصائيين من « الفقهاء والاقتصاديين » أمر وضع خطة عملية مفصلة .

فليس من الصحيح مطالبة الإسلام كما يفعل البعض بتفاصيل المناهج ، لأن ذلك من وظيفة الناس أنفسهم حيث يجب عليهم دراسة الظروف المحيطة بهم ثم البحث عما يناسبها من المبادىء والاطارات التي سنها الإسلام الحنيف .

ولذلك فالكتاب هذا يبين بعض المبادىء والشرائع الإسلامية في التنمية دون أن يدخل في تفاصيل الواقع الاقتصادي الذي تعيشه الأمة لأن ذلك من اختصاص الدراسات المفصلة إلا ان ذلك لا ينافي أن نستشهد بنتائج تلك الدراسات للتدليل على صحة نظرية أو لتوضيحها ان كانت معقدة !

وبالله كل الأمل وفيه كل الرجاء .

الكويت ١٥/١/٩٣ تقي المدرسي

في مواجهة الثورة الثالثة

ما هو حجم التخلف ؟

قال أحدهم للآخر : قرأت في طالع الدول الإسلامية انها تستولي على العالم كله في عام الفين بعد الميلاد فاجابه الثاني نعم ولكن قرأت في طالع شعوب العالم ذلك اليوم انهم قد هجروا الأرض إلى المريخ .

ان هذا الحوار المرح هو بعض ما يتنفس عنه المسلمون اليوم عن همومهم المستقبلية الكبيرة ،فبالرغم من ضرورة قيامهم بثورة اقتصادية ليتم اللحاق بالعالم المتقدم ، يبدو ان هذه الثورة لا تزال بعيدة المنال وذلك لأسباب وجيهة هي للمثال وليس الحصر .

١ ـ ان المسلمين متخلفون ثلاثة أجيال حضارية عن العالم في الجيل الأول : تقدم العالم في حقل الثقافة ، ذلك لأن المعروف

تاريخياً ان النهضة العلمية سبقت النهضة الصناعية بقرنين كاملين وبالضبط – تفتح العقل الأوربي – في العقد الثالث من القرن السادس عشر وتوسع في الصناعة في العقد الستين من القرن الثامن عشر .

والآن تمضي أربعة قرون من الزمن على الثورة العلمية ولاتزال ثقافتنا تعاني رواسب تخلفية عميقة .

وهكذا سبقَنا العالم في الجيل الأول ، وفي الجيل الثاني تقدم العالم المتحضر ـ صناعياً ـ حيث استثمر طاقة العلم الخلاق في حقل الصناعة ، فكهرب الانتاج ونظم السوق ، واتقن فن الاعلام ، بينما بقينا نعاني من «فرقة» العلم عن الصناعة ، و «عقم» المعرفة عن الانتاج .

صحيح اننا قد نستخدم اليوم أحدث المنتوجات العلمية ، وصحيح أيضاً أننا قد نستورد مصنعاً تشغله أيدينا وأدمغتنا وننتج كميات كبيرة من المواد المصنوعة « محلياً » ولكن كل ذلك يتم تقليدياً وعبر قنوات خاصة ، يحفرها إمتداد الحضارة الأوروبية بمعنى اننا لم نزل نمثل دور المقلد « الممتاز » في ذلك الجزء الذى نستورده من الحضارة ، فلا ندخل تحسينات كافية عليه حتى يكون من « صنعنا » وتتفاعل فيه «ثقافتنا» وتتناسب مع واقع أوضاعنا .

في مواجهة الثورة الثالثة :

والعالم اليوم يعيش الجيل الاقتصادى الثالث حيث يدخل مرحلة ما يسمى بـ (الثورة الثالثة) التي بدأت عام ١٩٥٠ وتوجز في ثلات نقاط :

- استخدام افضل منجزات العلم المتقدم .
- الاستغناء عن ادارة الإنسان بادارة الجهاز ذاته معتمداً على العقول الألكترونية الجبارة بما يسمى التشغيل الآلي .. «Antomatig» .
- استخدام الذرة في الصناعة .

وبتخلفنا عن هذه الثورة ثلاثة أجيال . وتقدم العالم ثلاثة أجيال كاملة ـ افلا يدعونا ـ هذا الوضع إلى الحسرة وربما إلى اليأس ؟

تنافس أم عداء :

٢ ـ والعالم المتقدم ينظر بعين مريبة ، وخائفة إلى العالم المتخلف ويخشى من قيامه بحركة سريعة يحقق بها تقدمه المنشود .

لذلك تضع الدول المتقدمة مختلف العقبات في طريق الدول

النامية بالرغم من انها تدعي مساعدتها في النهوض ، والسؤال عما إذا كان ما تفعله بنا الدول المسماة بالمتحضرة بدافع التنافس أم العداء ؟

طريق النهضة :

٣ ـ العالم الإسلامي لا يزال مختلفاً على نفسه في كيفية النهوض مما يعكس جهله أو تجاهله لمتطلبات النهوض والصيغة العملية التي يجب ان تحتوي هذه المتطلبات وتحولها إلى خطط مدروسة ، وليس جهل العالم الإسلامي أو تجاهله بكيفية نهوضه آتياً من غموض في الأمر ، بقدر ما هو ناتج من تعقد نفسي يعيشه المسلمون نتيجة التخلف والقلق واليأس، وتساعد التيارات القوية الآتية من الشرق والغرب « واليسار واليمين » على هذا الدوار ، حيث يطرحون على الساحة مختلف الشعارات الفارغة ، والآن لو طرحت السؤال التالي على الف انسان مسلم وهو : كيف ننهض ؟

لاستقبلك الف وخمسمائة اجابة .. لأن بعضهم يتبرع لك بأكثر من جواب لجهله بالحقيقة الضائعة في سوق الشعارات الرخيصة .

من أين نبدأ .. ؟

بعض يقول .. لكي ننهض لا بد أن نكنس أولاً واقعنا

الحضاري كله ! ونبدأ الحياة من جديد كأننا أمة بلا حضارة، ولا تاريخ ، ولا قيم ، وأخيراً بلا مبادىء وأيضاً بـلا « الله » !

فلقد رفع الطلبة المصريون في اضراباتهم الأخيرة شعاراً عكـَس هذه الفكرة المتطرفة بالقول : أين الله ..؟أرونا شخصه أو ابحثوا لنا عن « إله جديد » !

سبحان الله .. يبلغ اليأس بالإنسان إلى حالة التعري الكامل عن قيمه المقدسة ، كما حصل لهؤلاء ولكن إلى صفهم يوجد فريق يزعم أن التمسك بكل ما في واقعنا التليد هو الأسلوب الوحيد للنهضة ، وبين هذين المتطرفين يقف الآخرون في « سلم طويل » كل على درجة ، ولكن الجميع حائرون ويطرحون ذات السؤال في حقل الإقتصاد .

هل نبدأ التقدم من حيث بدأوا ؟ أي من نقطة « الصفر » أم نقلدهم في المراحل التي مضت حتى ننتهي إلى حيث يقف العالم اليوم !؟

وتتنوع الإجابات ولكل اجابـة أنصار وحجج و .. و « شعارات » .

حرق المراحل :

يقول البعض أن اليابان دخلت حقل التقنية عام ١٩١٤ أي بعد أربعة قرون من النهضة العلميـة في أوروبا وأصبحت اليوم من أكبر الدول الصناعية ولو كانت اليابان تبدأ من نقطة الصفر وتتدرج في تقدمها - اذن - كان عليها أن تنتظر قرنين كاملين حتى تنهي مرحلة النهضة العلمية فقط .

بينما يقول الآخر وهو يرى ضرورة الانطلاق من نقطة « الصفر » :

ان اليابان لم تقصر المسافة إنما أسرعت فيها لأنها كانت قد عبدت من قبل الأوربيين ومشكلاتنا نحن بالشرق اننـا نحاول حرق المراحل الضرورية «فنحترق» بأنفسنا يقول - كرستير - في كتابه (نظرية في التطور الإقتصادي) والذي ينقل عنـه الدكتور صلاح الدين نامق بالقول : « وتطلع (أي الشرق) وفي سرعة مدهشة إلى أسلوب التكنولوجيا في التنمية التي حققت نجاحاً في الغرب الصناعي ؟ لعله يحقق نفس القدر من النجاح في الدول النامية ، متناسياً ان هذا الغرب الصناعي قد أدخـل التكنولوجيا الحديثة مع تطورات مرحلية ذاتيـة بدأت بأول ثورة صناعية غربية في نهاية القرن الثامن عشر - سارت جنبـاً إلى جنب مع تقديم ملموس في العلوم الأساسية التطبيقية وانتهت إلى استخدامات متتاليـة للمعلومات المتوافرة في المجالات

التكنولوجية التطبيقية على أسس صناعيـــه تجارية ساعدت بدورها بطريق مباشر أو غير مباشر على انماء صناعات أخرى فنتج عن ذلك تقدم في جميع الصناعات » .

من أين نبدأ ؟ ... من التفهم

والواقع أن الاجابتين غير صحيحتين وإنمـــا لهذا السؤال الخطير اجابـــة بسيطة هي ضرورة الابتداء من التفهم لا من الصفر ولا من حيث انتهى العالم المتحضر ولكن كيف يكون التفهم منطلقاً نحو التقدم .

ان الرؤية السليمة والواضحة إلى أنفسنا وإلى الواقع المحيط بنا هي الخطوة الأولى التي تقودنا إلى الحضارة الحقيقية التي هي معاناة التقدم وممارسة منجزاته دون تقليد الآخرين فيهـــا أو الاستغناء عنهم فيها .

بينما افتقار الرؤية يجعلنا ندور حول أنفسنا في حلقـــات مفرغة قد ترتبط بسياسات دول أخرى ، فنمسي مجرد حلقة في اصبع الآخرين ، أو يجعلنا سلبيين نقبع في جزيرة الجهـــل والظلام وأيضاً في الأحلام الطفولية .

كل ذلك لأن الحضارة هدف مشترك لجميع الأمم ولكن كل أمة تملك وسيلة معينة لبلوغها فإذا أرادت هـــذه الأمة التحضر بوسيلة غيرها كان مثلها كالغراب الذي أراد أن يتعلم مشية —

الطاووس ـ فنسي مشية نفسه أيضاً إذ أن هذه الأمـــة لا تستخدم الوسيلة التي تملكها ولا تجد الوسيلة التي تريد أن تستخدمها .

فالشعب الصيني مشى في طريق الحضارة بوسيلته الخاصة وهي الاعتماد على الكثافة السكانية فاستطاع تحقيق أهدافه وأمريكا اعتمدت على المهاجرين والرساميل الأجنبية وأيضاً المعادن الثرية فيها فحققت الحضارة بهذه الوسيلة .

فلو كان الصين يقلد أمريكا في الحضارة لما استطاع أن يفجر القنبلة الذرية .. إلا بعد ألفي عام لماذا لأن الصين بكثافة سكانه لم يكن يستطيع استقبال المزيد من المهاجرين وبقلة موارده وظلم المستعمرين لهلم يستطع استثمار الرساميل الأجنبية وبضعف امكاناته الفنية لم يكن يقدر على جعل الثروات المعدنيـــة دعامة تقدمه .

والآن هل تستطيع أندونيسيا تقليد الصين فيوسيلة التقدم؟ كلا .. لأن أندونيسيا هي الأخرى ، تتمتع بظروف مختلفة فالقيم الدينية الراسخة فيها لا تسمح باعادة تجربة الصين بكل تفاصيلها كذلك سائر الدول الاسلامية لا تستطيع محاكاة الغرب أو الشرق في وسائلهم الحضارية لاختلاف بنيتهم الذاتية والثقافية وأيضاً الاقتصادية .

إذن لا بد أن نحصل أولاً على رؤية سليمة وواضحة لأنفسنا ولعالمنا المحيط بنا ثم نبدأ (بابتكار وسيلة مناسبة لنا نستعين بهـــا على ثورة تكنولوجية من نوع جديد ويشترط أن تتوافر المواصفات التالية في هذه الوسيلة :

١ ـ يجب أن تتفق تمامـــاً مع قيمنا ومبادئنا ومقومات كياننا التاريخية .

٢ ـ وأن تصاغ من امكانياتنا الذاتية المتوافرة

ولكن كيف ذلك ؟

التضحية بالقيم = جريمة

كثير من النــاس يضحون بقيمهم في سبيل مصالحهم ولكن حينما يصلون إلى عتبة المصالح تنتظرهم مفاجئة عريضة ، هي انهم لم يعودوا (هم) ولابقيت مصالحهم (مصالحهم) يجدون أنفسهم غرباء عن أنفسهم ويجدون أنهم أصبحوا يخدمون مصالح الآخرين !

ومن هنا كانت التضحية بالقيم جريمه .. حتى ولو كانت في سبيل المصالح ـ بل وأكبر من جريمة لأنها لا تقتل هوية الإنسان فقط بل تمسخ الإنسان إلى مصالح !.

ولكي نبقى متمسكين بقيمنا ونحن نتــابـع خطوات التنمية لا بد أن نعرف طبيعة هذه القيم فما هي ؟

تتلخص هذه القيم في كلمة : لا بد أن نجعل التنمية في خدمة الإنسان دون العكس ! كما تفعل النظم المادية .

وبتفصيل :

الحياة التي يصوغها الإسلام (وهو يمثل قيم الحياة) حياة هادئة بصيرة ، تنطلق من الإيمان والنشاط وترسو على شاطيء الرفاه والكرامة .

بينما الحياة التي تريدها الأنظمة المادية حياة بلا غاية محدودة وتسودها الفوضى والتوتر والغموض .

فالإسلام يريد للانسان أن يتحرك وأن ينتج ، وأن يقتني ولكن يتحرك وفق خطة مرسومة ، وينتج سلعاً معينة . ويقتني أشياء (مفيدة) ، وبالتالي يريد أن يوظف كل تلك الحركة والانتاج والاقتناء في سبيل الوصول إلى شيء معين ، هي السعادة الكريمة ـ ونقول سعادة لكي لا يلفه عذاب ، ونقول « كرامة » لكي يبقى « الإنسان » فلا تذبح إنسانيته فداءً لطعامه ومسكنه وراحة جسمه !

يقول الله سبحانه :

«كلوا من ثمره إذا أثمر و آتوا حقه يوم حصاده» (٦/١٤١) .

«كلوا مما رزقكم الله ولاتتبعوا خطوات الشيطان»(٦/١٤٢).

إن الأكل يجب أن يكون مع اتيان حقه، فذلك هوالرفاه، وهذه هي الكرامة ، ذلك جانب من الإنسان ـ وهذا جانب يجب أن يتحدا – حتى يكملا الهدف الرئيسي من حياة الإنسان .

أما ذلك الأكل الذي ـ لا يحدث شيئاً ويكون طاقة للفساد في الأرض واتباع خطوات الشيطان فإنه محذوف من قاموس الإسلام .

وهنا يريد الإسلام توظيف التنمية الإقتصادية في خدمة الأهداف الكبيرة التي من أجلها خلق الإنسان . وهذا يفرق أسلوب التنمية عند الإسلام – عن كل المناهج الوضعية بعدة فروق أساسية :

١ـ الإسلام يرفض بشدة ـ إكراه شعبٍ على التقدم تحت ستار التحضير بالعنف ، هذا الستار الذي أصبح شعاراً للاستعمار خلال القرن التاسع عشر – وذاقت الشعوب المتخلفة من ورائه ألواناً من العذاب .

٢ـ والإسلام يمنع كذلك الدكتاتورية من أجل التنمية التي تحت شعارها : تقوم الحكومات الاشتراكية ـ بمصادرة الحريات – وكبت التطلعات وتحطيم القيم المقدسة .

إن الحرية أشرف عند الإنسان من كل شيء ، ولا يجوز التنازل عنها رغبة في تقدم مادي ـ مهما كانت الظروف – وشعار الإسلام في ذلك « لا تكن عبداً لغيرك وقد جعلك الله حراً »[1] .

---

(١) حديث مأثور عن الإمام علي عليه السلام .

٣ـ ويقف الإسلام ضد الإثراء على حساب الآخرين لأنه تضحية غير مشرفة بالكرامة في سبيل الشهوات . إن القرآن يقول عن الثروة الآتية من الغل :

« وما كان لنبي أن يغل ومن يغلل يأت بما غل يوم القيامة ثم توفى كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون » (٣/١٦١) .

ويقول عن الثروة المحتطبة بالظلم :

« إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً إنما يأكلون في بطونهم ناراً وسيصلون سعيرا » (٤/١٠) .

ويقول النبي (ص) عن الغش :

« ليس منا من غشنا »

وليس هذه وصايا روحية ينبذها الإسلام إلى المجتمع ـ فاما يعمل بها أو يعزب عنها صفحاً ـ كلا انها نظم مدروسة يسنها الدين ويشرع لها ضمانات تنفيذية مناسبة ـ وأبرزها ـ وصاية المجتمع المسلم على تطبيقها بكل عزم واصرار .

فالمجتمع المسلم الممثل بالدول الاسلامية مسؤولٌ عن تطبيق هذه الوصايا المقدسة ـ ومنع كل عمليات السرقة والابتزاز ظاهرة وباطنة .. حتى لا تهبط الحياة الإجتماعية إلى حضيض الطبقات المتناحرة ـ طبقة تظـــلم وتغل وتغش وتبذر ـ وأخرى تبقى

تجتر الحسرات ليس لهـا من أمرها صغيراً أو كبير . كما تردت إلى مثل هذا الوضع المجتمعات الاقطاعية والاحتكارية الرأسمالية .

٤ـ والاسلام يحرم الثروة التي تجمع بالطرق الملتوية التي تضر بمصالح الآخرين ويضع لذلك مبدءاً عاماً يقول « لا ضرر ، ولا ضرار ، في الإسلام » .

إن الأساليب الماكرة المستخدمة في ظل النظم المادية التي تسبب الإضرار بالفقراء والكادحين تحت أقنعة شرعية ـ لا وجود لمثلها في النظـــام الاسلامي لأن الإسلام يدعو إلى روح العدالة وليس إلى قشورها الفارغة . الاسلام يوجد في المجتمع جهاز رصد أمـــين وبصير ويكلفه بمراقبة الأوضاع الشاذة وتصحيحها بسرعة .

ولقد كان هذا الجهاز (وهو المجتمع الاسلامي ذاته) وراء قدرة الاسلام ـ على تحقيق التقدم والرفاه للشعوب دون التوسل بالعنف والمكر والوسائل غير الشريفة .

ومقارنة بسيطة بين تقدم المسلمين الاقتصادي . الذي تم في ظل الاسلام وبـــين التقدم الذي أحرزه النظام الاشتراكي أو الرأسمالي للشرق والغرب . تكشف لنا الكثير الكثير .

تكشف لنا كيف أن الأمة الاسلامية بلغت التقدم الاقتصادي

والسياسي . دون ممارسة أي نوع من الكبت والارهـــاب ومصادرة الحقوق الانسانية ودون التوسل بالاستعمار والحرب والغدر ..

وبالتالي كيف أمكن للاسلام تحقيق تطلعات تلك الأمة بدون تلك المضاعفات الخطيرة التي سببتها الأنظمة الشرقية والغربية في ظروف بناء اقتصادها ..

بينما الغرب ـ استغل تفوقه العسكري في نشر الارهاب فوق ربوع الأرض ـ وقهر الشعوب - بالعنف والمكر..وامتص دمائها حتى الثمالة .

لقد كان الهدف المباشر للاستعمار هو تحطيم اقتصاد البلد ـ فور تمكنه منه .. لكي يفسح المجال أمام المنتوجات الغربية بالإنتشار .

فمثلاً : في الجزائر - ماذا فعل الاستعمار الغربي.. بالاقتصاد الوطني .؟

تعالوا نستمع إلى (بوجو) الحاكم العام للجزائر عـــام (١٨٤١ – ١٨٤٧) يقول :

« ليس هناك ما يمكن الاستيلاء عليه في أفريقيا إلا مصلحة واحدة هي المصلحة الزراعية . وقد فكرت في ذلك طويلاً عند

اليقظة وعند الرقادولم أستطع ان اكتشف طريقة أخرى للقضاء على البلاد إلا بالقضاء على تلك المصلحة »[١] .

وعن مدغشقر : يقول جاليني (الحاكم الفرنسي العام المنطقة) «ليس هناك ما يمنع ان تحمل الرؤساء بأوامر منا على اتخاذ ملابسنا وعادتنا وان نحث النساء على التخلص من ملابسهن الفضفاضة لكي يرتدين ملابس واردة من فرنسا »[٢].

إن الرأسمال الغربي الذي فجر الثورة الاقتصادية في القرن الثامن عشر والتاسع عشر جاء عَبْر جسر من المآسي ـ حتى وصل إلى البلاد الأوروبية . (والأمريكية) .

لقد كانت المستعمرات الأسيوية والأفريقية تعني أشياء كثيرة عند أوربا ـ فهي السوق العريقة لمنتوجاتهم المتزايدة وهي الموردالبشري الفخم ـ للأيادي العاملة وهي روافد المواد الأولية ـ التي كانت تنهب علانية وسراً !

دعنا نستمع قليلاً إلى التاريخ ليُدلي علينا ببعض الشهادات على هذه الحقائق :

كان المستعمرون يسخّرون الأيادي بعنف وبدون أي أجر

(١و٢) تشريح جثة الاستعمار ص ٢٦٩ .

وفي شروط أقل ما يُقال فيها إنها (مأساوية) .

« في تشاد طلبت البعثة الفرنسية حمالين (للسخرة) ففر كل الرجال الأصحاء إلى الغابات !! ولم يبق إلا الشيوخ والنساء والأطفال فأخرج هؤلاء من أكواخهم وبعد أن أوقفوا في صف واحد فتحت عليهم نيران البنادق حتى سقطوا عن آخرهم وبلغ عدد القتلى (١١١) جثة (شخصاً) »[١].

هذا عن تسخير الأيادي العاملة في البلاد المستعمرة ذاتها – ولكن هل كانت هذه كل المأساة – كلا – بل كانت تجذب هذه الأيادي – بعنف – إلى بلاد المستعمرين (بالكسر) وفي حافظة التاريخ ألف قصة وقصة عن أنواع العنف القاسية الـــتي كانت تستخدم ضد الأيادي المجلوبة إلى بلاد المستعمرين .

فمثلاً : شن البرتغال حملات ضارية على انجولا في أفريقيـــا بغرض اسر أكبر عدد ممكن من الأرقاء بصراحة ودون تكتم .

وكان ينقل هؤلاء الأسرى – البؤساء إلى أوربا بطريقـــة وحشية. وموغلة في الوحشية واللاانسانية. « كانت تحشد هــذه الجموع في السفن الرأس بالرأس، والجسم على الجسم بعد أن تغل أيديهم وتوسم أجسامهم (بحديدة محماة) .

---

(١) المصدر . ص ٢٩٠ .

وكانت قسوة الطريق تؤدي إلى موت عدد كبير منهم قبل الوصول إلى خدمة الأسياد الأوروبيين – حتى بلغت نسبة الوفيات فيهم عام ١٧٧٤/١٧٤٦ إلى ٣٤٪ !!!

وثم كانوا يعاملون بوحشية بالغة ـ وكثيراً ما كانوا يُحرمون مما ينعم به الحيوان !

وقد تم تهجير مأتي مليون من الأفريقيين فيما بين القرن الخامس إلى منتصف القرن التاسع عشر .

إن استعباد مأتي مليون بشر – بهذه الطريقة الوحشية – لم يكن يهز ضمير رجل واحد في تلك البلاد التي ماتت القيم لديها ـ وأصبحت التنمية الإقتصادية إلهاً يُعبد من دون الله .

والإسلام حيث يربط التنمية بالقيم ربطاً متيناً يُحصن الإنسان من مثل هذه النتائج السيئة .

وليس الغرب فقط داس القيم الإنسانية في طريقه إلى التنمية ـ إنما الشرق كان أقسى ـ وأعنف وأكثر وحشية في ذلك .

كيف ذلك ؟

سرقت الدولة الشيوعية الأم – (الاتحاد السوفيتي) سرقت أكثر احتياطي الذهب من اسبانيا – عند الحرب الأهلية – بين الوطنيين والشيوعيين . بحجة المحافظة عليها كما نهبت ١١ طناً من الذهب من إيران .

ولكن هذه السرقة – وأمثالها – لم تكن تشكل سوى حجر واحد في بناء الرأسمال الروسي والذي اعتمد على العنف والمكر –في كل مراحل بنائه .

فالسرقة المنتظمة لموارد الشعوب المقهورة فى أوروبا الشرقية والجمهوريات التركية وفرت على الروس ما كان يحتاج إليه من الرأسمال المتراكم .

والأيادي كانت جاهزة عند الروس والمشنقة كانت بخدمة الدولة في كل لحظة وقد ابتلعت ملايين من البؤساء الذين قاوموا أساليب العنف الوحشية .

ورفض هــــذا النوع من التنمية يأتي في مقدمة الشروط الإسلامية التي يجعلها اطاراً ضرورياً للتنمية .

ونحن إذ نطالب بالتنمية الإقتصادية على طريقة الإسلام نجعل تلك المآسي نصب أعيننا ونتخوف من تورط بلادنا في دركها

عن الإنسان والتنمية

(١)

الثقافة في خدمة التنمية

سبق وان بينا شرطين للخطة الإقتصادية التي يجب أن نتبناها :

١ ـ أن تكون هذه الخطة متفقة مع قيمنا ومبادئنا .

٢ ـ وأن تصاغ من امكانياتنا ومواردنا الطبيعية .

والحديث السابق ـ كان عن توفيق التنمية مع القيم بقي أن نتحدث عن البند الثاني ـ وبالضبط عن امكاناتنا التي يمكن توظيفها في عملية التنمية .

وهذه الإمكانات تتنوع عادة إلى :

أ ـ الامكانات البشرية .

ب ـ الامكانات المادية .

وحديثنا الآن حول « الأولى » كيف يمكن أن نستثمرها في عملية التنمية .

والثقافة هي الوسيلة المباشرة لبنـــاء الإنسان الصالح . كيف ذلك ؟

الجواب :

لكي نتابـع مسيرة التنمية الاقتصادية قدماً إلى الامـــام ، ولـكي تبقى تطلعاتنا معلقة بقنديل التقدم أمام الآخرين ، واستباقهم إلى استثمار طاقات الكون .

لـكي تكون كذلـك ، لا بد أن نبحث عن ثقـافة تغيرية تعطينا الدفوع الحضارية ، وتمدنا بالتطلعات والآمال الزاهرة .. وبالتالي تساعدنا على تجاوز العقبات التي في الطريق .

ولا يكفي أن نجد هذه الثقافة في كتاب أو مبدأ ، انمـا يجب أن نبثها عبر كل الأدمغة ، وننميها باستمرار لتصبح « وعياً جماهيرياً طافحاً » .

ولكن لماذا نحن بحاجة إلى ثقافة تغيرية ؟ ولمـاذا يجب أن ننميها حتى تصبح وعياً جماهيرياً ؟؟

ان العلاقة بين الثقافة والتقدم ، هي علاقة الشجرة ببذورها ،

وأيضاً بجذورها فلا يمكن خلق التقدم بغير الثقافة ولا يستمر بدونها .

دور العامل الانساني

ذلك ..

ان الدراسات العميقة التي ظهرت أخيراً عن الدول المتخلفة دلت على ان العامل الإنساني Human factor هو العامل الحاسم الذي يعين مصير الأمة ، فإذا كان الإنسان متشبعاً بروح خلاقة ، نشطة قامت جميع العوامل الاقتصادية الأخرى بخدمته ، أو بالأحرى استطاع استخدام جميع العوامل في سبيل هدفه . أما إذا كان العكس ، فان ذات العوامل المساعدة تتحول إلى أسباب مباشرة للتأخر والتخلف .

يقول البروفسور « كالدور » : « ان اية دراسة ديناميكية في التطور الاقتصادي ، لا بد أن تؤدي إلى دراسة العوامل السيكولوجية الاجتماعية المحددة للتقدم ، فالمنظم الرأسمالي في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر هو الذي دعم النظام الرأسمالي وقوى شأنه » .

أما في الدول التي لم تمر على النظام الرأسمالي ولا زالت تعاني من الفقر والتخلف الاقطاعي ، فلعل الانماط السلوكية للفلاح العادي هي التي دعمت من النظم الاقتصادية السائدة في هذه

الدول والمناطق » .

لكي نوضح دور العامل الإنساني في التنمية ونعرف بالضبط النواحي المختلفة التي يظهر فيها الانسان كعامل اقتصادي ، وبالتالي لكي نستطيع توظيف هذا العامل في بناء اقتصادنا المتخلف .

نبين نواحي تأييد الثقافة للتنمية ونبين كذلك مدى ما يمكن ان يعطينا الاسلام في ذلك من امكانات .

العامل الحضاري :

أصدفة تتمسك أمة بزمام القيادة العالمية حيناً ، ثم تخور وتترك الزمام لأمة أخرى .. ؟

أم هي سنة الكون التي لن تجد لها تبديلا ، ان ترتفع أمة إلى سدة الخلافة على الأرض ، حتى تنتهي دورتها الحضارية المرسومة لها ـ كما ينتهي دور الممثل على الخشبة ـ فهناك تعمل كل الأحداث على ازالتها وتبديلها بأمة أخرى .

وهكذا يفعل بالامة الثانية في حلقة دائرية مستمرة تسمى في علم « الحضارة » بـ (دورة الحضارة) ؟؟

آخر الدراسات التاريخية اثبتت ان دورة الحضارة (نظرية ابن خلدون وكثير من الكتاب الإنسانيين)لا تمثل إلا جانباً من

الحقيقة ، فما هو الجانب الآخر ؟ تقول هذه الدراسات ان هناك عوامل تدعى بـ « عوامل الحضارة » هي التي تسبب انبثاق أمة من الظلام ـ فترة من الزمن ـ وهي كثيرة ، ولكن العامل الحاسم فيها هو « الفكرة الحضارية » فهي التي تظهر في أمة فتقوم بدور (المنظم) لمجموعة الأشياء المتراكمة أمام الإنسان ، كما تتراكم المواد الإنشائية أمام المهندس قبل أن يبدأ بالبناء .

دور « الفكرة » في البناء الحضاري :

فالتراب والماء والمعادن وأيضاً الأيادي العاملة كلها عناصر البناء الحضاري ، وهي موجودة في كل مكان ولكن لا يتحرك الإنسان باتجاه استخدامها إلا بعد وجود « دافع » نفسي يحدو به إلى هذا الإستخدام ، والفكرة الحضارية تأتي لتكون ذلك ـ الدافع ـ الذي يحرك الإنسان فيتحرك كل شيء من حوله باتجاه البناء .

ولكن هذا الإنسان لا يتحرك بدون فكرة ـ فالفكرة تلعب دور الوسيط الرابط بين الأشياء والإنسان .

لذلك كانت الأمم في محيط يلفه السكون والتخلف والكسل . حتى تلقي السماء فيها صخرة الوحي فتهزها من أعماقها وتخلق فيها أمواجاً عاتية لا تزال تتسع وتتسع وتتلاحق حتى تشمل العالم . ففي التاريخ القديم كانت الأمة العربية تنام في رحاب السكون

والكسل ، وحولها كل الطاقات الطبيعية تذهب بدداً ولا زالت حتى جاءها الوحي بدين الإسلام .

ففجرت طاقاتهم ووظفتها في البناء والتقدم فكانت الحضارة حيث ساد الرخاء والأمن والبناء . ولم يعد العربي يأكل الدم ، ويتفكه بأوراق الشجر ،ولم يعد يجهل طعم الكثير من الفواكه أو لا يعرف كيف يستخدم طيب الكافور بل يتصوره ملحاً فيجعله في طعامه..

ذلك لأنه أصبحت لديه « فكرة» أعطته ـ دافعاً ـ نحو استثمار طاقات الحياة من حوله ، وتسخيرها من أجل تقدمه.

والفضل في ذلك إلى الوحى فهل ننتظر نحن أيضاً ذلك الوحى ؟...ـ كلا ـ .

ان استيراد الفكرة الحضارية ممكن فان الأمة الأوروبية استوردت « الفكرة المسيحية » وتلبست بها وجعلتها وقود تقدمها .

والأمة الأميركية لم تتقدم بالوحى بل برجال صنعتهم الحضارة الاوروبية في تلك القارة المسيحية،التى أشعلت جذوتها (فكرة الوحى) .

همة العاملين .

ولذلك فبالرغم من توافر المعادن في العالم الجديد امريكا

لم يستطع الهنود الحمر وهم السكان « النابتون » من أرض أمريكا أن يصنعوا شيئاً ..

انما المهاجرون الذين حملوا معهم للفكرة والنشاط هم الذين استثمروا معادن أمريكا وجعلوا منها أقوى دولة في العالم . ان الدراسة الاقتصادية الاحصائية التى استشهد بها « بالدوي » في كتابه (التنمية الاقتصادية) تدل على أن التنمية الاقتصادية التي حدثت بالفعل في الولايات المتحدة الامريكية في الفترة ما بين ١٨٧٠ وأوائل القرن العشرين انما ترجع أصلاً ودون أدنى شك إلى زيادة الكمية التى طرأت على رؤوس الاموال الصناعية والزراعية فى البلاد وحدث شيء من التقدم فى مستويات التعليم في ذلك الوقت إلا ان « مهاميز » الإنتاج كانت دائماً رجالاً مغامرين أشداء آلوا على أنفسهم أن يحصلوا على الثروة التي حرموا منها في بلادهم الاصلية فهاجروا إلى أمريكا وليس لهم من أمل إلا الغنى والثروة فعملوا لها بجد واجتهاد وحققوا في النهاية ما كانوا يصبون اليه .

هكذا تكون ـ مهاميز ـ الإنتاج ـ هم ـ الرجال المغامرون وليست رؤوس الأموال ولا الموارد الطبيعية ولا حق التعلم .. والتجربة ذاتها تكررت في بلاد كثيرة من العالم الحديث فاليابان والإتحاد السوفياتي والصين لم يتقدموا إلا بفضل هذه « الفكرة الحضارية » التي ايقظت روحهم الهاجعة وجعلت لهم تطلعاً أسمى من واقعهم .

وهكذا تكون الفكرة : (الثقافة) منطلقاً لمسيرتنا الحضارية .

ولكن كيف نشحن أبنائنا بهذه الفكرة ونربيهم بها ؟ لكي نعرف ذلك بالضبط لا بد ان نعرف كيف يربي الاسلام الإنسان المثقف الذي يجعل للعمل قيمة أساسية - ثم نتابع الحديث حول ما يمكن ان نضعه في سبيل ذلك من مناهج .

الاسلام والشخصية العاملة :

يتبع الإسلام خطين تربويين لبناء الشخصية العاملة ، نركز نحن اهتمامنا بواحد ، وندع الآخر :

الاول : **خط وقائي** : ويحافظ الدين به على حيوية النفس واندفاعها ويزرع الثقة والحب في القلب ، ويقتلع جذور اليأس والقلق منه .. وهذا هو الخط الذي ندعه لأنه لا يمت من قريب ببحثنا الإقتصادي .

الثاني - **خط تشجيعي** يجعل به الإسلام « للعمل » قيمة سامية يتطلع اليها المؤمنون ، وانما نركز حديثنا على هذا الخط لأننا بأمس الحاجة اليه .. فلقد انشطر الدين والدنيا في قلب « المؤمن » وزعم أن صلاته ونسكه شيء ومحياه ومماته شيء آخر .

وقال مع من قال في حرب صفين : الصلاة مع علي (ع)

اتم والطعام مع معاوية أدسم والوقوف على التل أسلم !!

ولكن ووفقا لسنة الله في خلـقه فقد هذا الفريق صلاته وطعامه وسلامته ، لأن طاقات الدين من – صلاة وجهاد – هي التي وفرت الطعام والدسم ، فإذا ذهبت – لم يبق إلا الجـوع والخوف – !

والسؤال كيف يجعل الدين من العمل قيمة .. ؟

ويأتي الجواب من الوحي – متمثلاً في النصوص التالية :

« ومنهم من يقول : ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار » .

« قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات مـن الرزق ، قل : هي للذين آمنوا في الحيـــاة الدنيا خالصة يوم القيامة » .

« القرآن الكريم »

« العبادة سبعون جزء – أفضلها جزء – طلب الحلال » .

« الرسول الأعظم (ص) »

« ليس منا من ترك دنياه لاخرته ، وليس منـــا من ترك آخرته لدنياه » .

« الامام الصادق (ع) »

« ملعون .. ملعون من القى كله على الناس » .

« الرسول الأعظم (ص) »

« ان ظننت ان هذا الأمر – أمر قيام الساعة ـ كائن في غد، فلا تدع طلب الرزق ، وان استطعت الا تكون كلا فافعل »

« الامام الصادق (ع) »

سئل الامام الصادق عن بعض أصحابه ما فعل ؟

قالوا له : اقبل على العبادة وترك التجارة .

فقال : ويحه أما علم أن تارك الطلب لا يستجاب له دعوة انظروا لا يستجاب له دعوة .. ان قوماً من أصحاب رسول الله ـ صلى الله عليه وآله – لما نزلت الآية « ومن يتق الله يجعل له مخرجاً ويرزقه من حيث لا يحتسب »، اغلقوا الأبواب واقبلوا على العبادة وقالوا ـ قد كفينا ـ فبلغ ذلك النبي (ص) ، فارسل اليهم ..

فقال :

ما حملكم على ما صنعتم ؟

فقالوا : يا رسول الله تكفل الله لنا بأرزاقنا ، فاقبلنا

على العبادة .

فقال : انه من فعل ذلك لم يستجب له .. عليكم بالطلب .

ولم يكتف قادة الإسلام الروحيون « بالتشجيع القولي » المتواتر على العمل وقيمته السامية . بل راحوا يعطون اتباعهم دروساً عملية في ذلك وفي القصص التالية بعض النماذج من ذلك :

«أوحى الله إلى نبيه داود – كما جاء في حديث الامام علي (ع) – « انك نعم العبد لولا انك تأكل من بيت المال ، ولا تعمل بيدك شيئاً .. فبكى داود أربعين صباحاً ، فأوحى الله إلى الحديد – ان لن لعبدي داود – فألين لداود الحديد – فكان يعمل في كل يوم درعاً ، فيبيعها بالف درهم ، فعمل ثلثمائة وستين درعاً وباعها بثلثمائة وستين الفاً واستغنى عن بيت المال » .

مما سبق يتبين بوضوح مقدار – الأهمية – التي أعطاها الإسلام للعمل والعاملين .

والقصة التاريخية المتخذة من حياة داود لا تشجع العامل البسيط على العمل فقط انما تفرض العمل على القادة الروحيين والسياسيين أيضاً .

وهذا مثال آخر ..

«في بعض طرقات المدينة - يقول أحد المتصوفة – رأيت

الإمام أبا جعفر محمد علي الباقر ـ ع ـ متكئاً على غلامين يتصبب عرقاً ـ وكان الوقت صيفاً ـ .

فقلت : أصلحك الله ، شيخ من أشياخ قريش في هذه الساعة على مثل هذه الحالة ، في طلب الدنيا ؟ ! أرأيت لو جاء أجلك وأنت على هذه الحالة ؟

فقال : لو جائني الموت وأنا على هذه الحال ، جائني وأنا في طاعة من طاعة الله عز وجل ، أكف بها نفسي وعيالي عنك وعن الناس ، وانما كنت أخاف لو جائني الموت وانا على معصية من معاصي الله .

فقلت : صدقت ـ يرحمك الله ـ أردت ان اعظك فوعظتني .

لا حضارة بدون عمل :

كان هذا الرجل يتبع بعض المذاهب الصوفية التي تسربت إلى الإسلام ، والتي كانت تدعو إلى السلبية والانطواء ، وتزعم ان أفضل ساعات الانسان هي التي يعيش خلالها بعيداً عن متطلبات الحياة . فلما رأى الامام يسعى في طلب الرزق هاله ذلك وجاء لينصحه بيد ان الامام كان يمثل ـ بدوره ـ فلسفة الاسلام الايجابية التي تدعو إلى بناء الحياة الفاضلة والمثابرة في

سبيل ذلك ، حتى في حالات الشيخوخة المرهقة .

لهذا عبر عن العمل – بالطاعة لله – لماذا .. ؟

لأن الذين يمثلون الدين هم في الوقت ذاته دعاة حضارة ،ولا تبنى حضارة دون مثابرة دائبة في سبيل العمل .

ان العمل غنى ، والغنى قوة .. وجدير بالمؤمن أن يكون قوياً ، ليحقق أهدافه . بل ليحافظ على ايمانه .

عبد الأعلى - من شيعة الامام الصادق – عليه السلام يقول استقبلته في بعض طرق المدينة في يوم صائف شديد الحر ، فقلت :جعلت فداك ، مالك عند الله وقرابتك من رسول الله – صلى الله عليه وآله – وانت تجهد نفسك لنفسك في مثل هذا اليوم ؟

فقال : يا عبد الأعلى خرجت في طلب الرزق لاستغني به عن مثلك .

ويقول الامام الصادق عن نفسه : اني لا عمل في بعض ضياعي حتى أعرق ، وان لي من يكفيني ، ليعلم الله عز وجل اني أطلب الرزق الحلال ..

فالإنسان لا يمكن أن يبقى بدون رزق فان طلب – النوع

الحلال منه ـ استغنى عن الحرام . أو ليس اذن طلب الحلال عبادة ، لأنه يغنى عن الحرام .

رأيت الإمام أبا الحسن – عليه السلام ـ « والكلام لبعض الرواة » يعمل في أرضه ، وقد استنقعت قدماه في العرق .

فقلت : جعلت فداك أين الرجال ؟

فقال : قد عمل باليد من هو خير مني ومن أبي في أرضه . قلت :من هو ؟

قال : رسول الله – صلى الله عليه وآله – وأمير المؤمنين – ع – وآبائي كلهم ، كانوا قد عملوا بأيديهم ، وهو من عمل النبيين والمرسلين والأوصياء والصالحين .

هكذا يرفع الإسلام العمل إلى مستوى « القيمة الدينية المقدسة » .

ولكن هل : يقف الإسلام عند هذا الحد كلا انه يتجاوزه ليضع قانون « من لا يعمل لا يأكل » في اطاره الإنساني المناسب .

ملاحظة الكسالى

إن السعي وراء تثبيت قيمة عالية للعمل في المجتمع لا يقتصر

في الإسلام على التشجيع واعطاء الدروس العملية ، بل يتجاوز ذلك حتى يتجسد في ملاحقة الكسالى والعطلة وأيضاً قتل جراثيم « الكسل » في جسم المجتمع فكيف تتم ملاحقة الكسالى وكيف تقتل جرثومة الكسل ؟

الاسلام يحرم ويعاقب على اللهو والباطل الذي يمتص طاقات الانسان وهو لا يدع في المجتمع فجوة تتسرب منها اليه — الميوعة والانحلال .

فمثلاً : القمار حرام في الاسلام بكل اشكاله ، لأنه يشجع الفرد على اللهو والتقاعس عن العمل الجاد .

والربا — جرثومة — للكسل تشجع طائفة من الناس على الترهل ذلك لأن المرابي يتحول إلى عنصر (مرض) يفرز من حوله الكسل إذ يموت في نفسه الخوف والرجاء ولأنه مترهل فهو يستقطب من حوله شلة يقضي معهم ساعات فراغه . يقول الله تعالى عن علاقة الربا والكسل : « الذين يأكلون الربا — لا يقومون — الا كما يقوم الذي يتخبطه الشيطان من المس ذلك بأنهم قالوا انما البيع مثل الربا وأحل الله البيع وحرم الربا » ويمنع الاسلام الخمرة ، لأنها تدعو إلى الترهل والميوعة ويقول عنها وعن القمار :

« انما الخمر والميسر والانصاب والازلام رجس من عمل الشيطان » .

وأخيراً يريد الإسلام ان يكون المجتمع حيـــاً .. نشيطاً يتحرك باتجاه واحد هو البناء ويوظف كل طاقاته في ذلك .

ويمنع الإسلام الحكرة والغش والتعيش على النميمة وتفريق الناس وأكل المال بالرشوة و .. و ..

سياسة تربوية جديدة

لأن كل ذلك - أسباب للكسل — وامتصاص للطاقة في الهدم وهدر لكرامة الإنسان. يعبر القرآن عن كل ذلك بكلمة واحدة هي « الباطل » فينهى عنه ويقول « يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل » .

واستناداً إلى هذه الآية حرم الفقه الإسلامي : الاكتساب بكل وسيلة محرمة كما حرم ابتزاز الأموال بوسائل لا تعود على الناس بالخير .

والمسئول عن تنفيذ هذه التعاليم — هي — التربية الصالحة كما انها هي المسئولة عن بث روح العمل الجاد في الأمة .. لكي يتحول إلى تقدم صناعي مزدهر .

والمطلوب سياسة تربوية جديدة تتحمل المسؤوليات الكبيرة وتنتهج المناهج التالية :

أولا – لا بد ان تتجه أجهزة الاعلام ناحية التوجيه الاقتصادي ليعرف كل فرد انه مسئول عن تقدم البلاد وان منطقة مسئوليته هي بالضبط موقع عمـــله وان بزيادة انتاجيته هناك وبابتكاره الوسائل الجديدة وأخيراً بقدرته على التفاعل مع الآلات الحديثة بكل ذلك يتم تقديم البلاد .

ان رجل الشارع في بلادنا لا يعرف شيئاً عن أوضاع بـلاده الاقتصادية ولهذا فهو لا يتحمس للعمل بالسياسات الاقتصادية المتبعة بالرغم من امتلاكه لحماس وطني مشبوب ، ذلك لأن هذا الحماس وحده لا يفيد فالانسان يتقدم حينما توجد لديه أهـداف محددة ووسائل محددة توصله اليها .

وقد يكون لرجل الشارع عندنا أهداف يتحمس لها ولكن ليس لديه ايمان بالوسائل التي تقترحها الدولة وعلى أجهزة الاعلام ان تقوم بتوصيل (الوسائل) بـ « الأهداف » في ذهنية الأمة ، كما فعلت من قبل أجهزة الاعلام في البلاد المتقدمة .

فمثلاً الاتحاد السوفياتي الذي أراد القفز من حضيض التخلف إلى قمة التقدم خلال ربع قرن .. ماذا فعل ؟ وجه كل أجهزته نحو التوجيه الصناعي فلم يمر خطاب واحد من خطب الرؤساء إلا وفيه دعوة صريحة نحو البناء الاقتصادي حتى كان يخيـــل

للمراقب انهم دعاة صناعة قبل أن يكونوا دعاة إلى الشيوعية ، كذلك يجب ان يتحول كل فم وكل قلم « منا » إلى داعية للتنمية الاقتصادية .

لا مجال للهو ..

ثانياً – يجب ان نمنع كل لهو باطل لنزيد من جدية الشعب وثوريته في البناء فإننا لا يمكن ان نطالب الشعب بالعمل الجاد في جو تملئه أصوات الغناء وصور النساء وأفلام الخلاعة وقصص المغامرات الجنسية وأيضاً كؤوس الخمرة .

في سنوات التنمية الأولى منعت الدول الصناعية كل هـذه الأمور لأنها شعرت بانها لا تزيد الشعب إلا تخلفاً ذريعاً .

ثالثاً – وفي حقل التربية الخاصة (المـــدارس ـ الأسرة – النوادي) يجب أن تتركز الجهود لبث روح العمل في الفرد لينمو وكله حب للعمل وتقدير للعاملين ، لا ريب أن الرياضة البدنية تقوم بدور فعال في تربية الشباب على النشاط ، ولكنه دور ناقص ، إذ يختلط به اللعب بالجد ، انمـا يجب ان ندعهم يتكتلون في جمعيات خيرية لمساعدة الضعفاء والمكوبين ونشجعهم على القيام بمشاريـع معينة كاقامة المصانع والعمل بها وبالتالي يجب أن نجعلهم يشعرون أن العمل شرف . والكسل مهانة وذل – وإذ ذاك نطمئن إلى أنفسنا باننا أجدنا تربية الشخصية العاملة .

الافتقار الى التفاعل

وبعد التربية يأتي دور التعليم حيث يصبح التعليم آنئذ وسيلة لهدف معين حددته التربية وجعلته يختمر في ذهنية الفرد .

إن التعليم الذي لا هدف له تكويم للمعلومات على قشرة الذهن - يرفضه الفكر - كما ترفض الصخرة الصماء البذرة - بينما التعليم الهادف انما هو تفاعل بين الفكر والسلوك داخل محيط الذهن الخصب - كما تنمي الرجوة الصالحة الزيتون والرمان .

ان الخطأ الكبير الذي نرتكبه نحن هو : اننا نختطب « المعلومات » دون ان نتفاعل معها ، وذلك يؤدي إلى عدة نتائج سلبية سنفصلها فيما بعد ، أما الآن فعلينا أن نعرف أن الدول المتقدمة قبلنا بدأت بالتربية وانتهت إلى التعليم فإذا أخذنا الولايات المتحدة مثلاً مناسباً لدولة متقدمة رأينا أنها وجهت اهتمامها أولاً ناحية التربية والاندفاع النفسي إلى التنمية وبعد ذلك شرعت في التعليم ، وإنما ركزت اهتمامها بالتعليم منذ السنوات الثلاثينية من هذا القرن حتى سنة ١٩٥٧ حيث أخذ « التعليم » - والتعليم الفني العالمي خاصة - يدخل في الحياة الاقتصادية ويصبح أحد الأسباب الرئيسية في توليد تيار التنمية .

ومع ذلك لم يكن التعليم كل الاسباب التي أدت إلى التنمية

فقد أثبتت التجربة أن التعليم العام للانسان قد يشارك بنسبة ٢٠ ٪ فقط من مجموع الأسباب الأخرى المؤدية إلى التنمية .

المطلوب منهجية في التعليم

وبالرغم من أن التعليم أصبح اليوم السمة العامة للدول المتقدمة .. حتى أننا نميز الدول النامية – بانها التي تكثر فيها نسبة الاميين بعكس الدول المتقدمة . فمثلاً تصل نسبة الاميين إلى ٦٢ ٪ في المكسيك وإلى ٨٠ ٪ في الهند وإلى ما يقارب ٦٠ ٪ في أندونيسيا بينما هي في استراليا ونيوزلنده وهما في الدول المتقدمة – أقل من ٥ ٪ وفي بعض الدول المتقدمة لا أمية أبداً .

ولكن لا يعني هذا أن التعليم سبب رئيسي من أسباب التنمية ،بل يدل على أنه نتيجة لتقدم الدولة وهدف من أهدافها البعيدة .

ولكن لكي لا نشط عن الحقيقة لا بد أن نقول انه أصبح للتعليم دور كبير في التنمية ولكن ليس في كل وقت وبكل شكل .

انما يجب أن يتبع التعليم منهجاً يقتضيه التخطيط الشامل للتنمية ليكون التعليم واحداً من مجموعة الرساميل الموظفة في

عملية التنمية وذلك يقتضي أمرين :

١ – توقيت درجات التعليم بخطوات التنمية •
٢ – تكثير التعليم الفني حسب حاجات التنمية •

فعن التوقيت يعتقد الخبراء أن حاجة البلاد النامية إلى الرأسمال القومي يجعلها مقتصرة في صرف المال على التعليم إلا حينما ترى في ذلك حاجة انمائية ملحة •

يقول الأستاذ «لويز» في مقال نشر له سنة ١٩٦١ في أعقاب مؤتمر للتنمية الاقتصادية عقد بجامعة اكسفورد : « ان انشاء المزيد من المدارس الابتدائية في الدول النامية ينبغي أن يسير جنباً إلى جنب مع معدل النمو الاقتصادي في القطاع الحديث من الانتاج أي في تلك النشاطات التي تستخدم المزيد من وسائل الإنتاج الرأسمالية الكثيفة مستبدلة اياها بالوسائل الزراعية التقليدية واليدوية الضعيفة الانتاجية . فهذه الأنشطة الاقتصادية التي تبدأ في استخدام الوسائل الانتاجية الحديثة ستزيد من الإنتاج تباعاً وستطلب المزيد من العمال الحاصلين على الشهادة الابتدائية » .

وبهذه العملية يصبح التعليم جزءاً من الاستثمار الوطني وقد أيد بحث قيم لعالم سوفياتي هذا الأمر إذ قال : ان نشر التعليم الابتدائي في روسيا السوفياتية على طول البلاد وعرضها أدى إلى فوائد اقتصادية قدرت بـ ٢٤٣ مرة من جملة ما انفق على هـــذا

التعليم من استثمارات .

كل ذلك يدعونا إلى جعل التعليم الابتدائي جزء من خطة للتنمية وليس هدفاً بذاته يتناقض مع سائر أهدافنا الاقتصادية.. وإذا جعلنا التعليم جزءاً من خطة ، لا بد أن نراعي حاجة الخطة العامة إلى أنواع معينة من التعليم فالبلد الذي يقوم بالثورة الخضراء لا بد أن توفر مهنيين في الزراعة بينما البلد النفطي الذي يحاول استثمار نفطه بنفسه يجب أن يركز اهتمامه في تربية الخبراء النفطيين وهكذا .

ولكن هل نحن نفعل ذلك . ؟ كلا، والمقارنة التالية تكشف لنا عن الفجوات البعيدة في التعليم :

إن ٤٠ ٪ من شباب الاتحاد السوفياتي و ٤٤ ٪ من شباب الصين يعيشون اليوم مقيدين ببرامج للتدريب الزراعي والصناعي بينما تهبط هذه النسبة في الهند إلى ٤ ٪ فقط .

فهل يعني ذلك سوى عقم التخطيط .. وهل سيؤدي ذلك إلا نحو تكديس الشهادات فوق بعضها وتهجير الأدمغة إلى الخارج ؟ ؟ والسؤال : ماذا عن الاسلام ونظرته إلى التعليم ؟ وهل نستفيد من تعاليمه ما يعالج الموقف ؟ لننظر اليه ماذا يقول :

(٢)

الثقافة : إطار التعاون

هناك من يرى أن للمجتمع روحاً عامة تتفاعل داخل بحر هائج مياهه بمجموعة أفراد المجتمع .

أصحيح أم باطل هذا الرأي الذي تبناه فريق كبير من علماء الاجتماع ؟

الواقع ان هذا الرأي صحيح نسبياً . إذ ان مجموعة العلاقات الاجتماعية ـ تشكل ـ إطارات معينة . تؤثر في أفكار كل فرد . وقد سماها علماء الاجتماع ـ بروح المجتمع .

والثقافة الاجتماعية . هي مادة كل الاطارات . التي يحلو لنا ان نسميها بالقيم السامية التي يقدسها جميع الأفراد . ويتفقون عليها ـ مهما اختلفوا في غيرها .

ومشكلة الدول المتخلفة ـ انها تقدس قيماً تتناقض في كثير من الأحيان ، مـــع واجبات التنمية الأقتصادية . أو في أفضل الأحيان ـ لا تخدم هذه القيم ضرورات التنمية مما يحدو بنا إلى تبديلها بقيم أكثر فائدة وخدمة .

فالقيمة الأساسية التي يجب أن تعطى ـ للتعاون والتنظيم ـ حتى تستطيع الدولة من التقدم ـ ليست غير موجودة فقط بل وقد نجد عوضها ـ قيمة اجتماعية تقدس التفرقة والفوضى .

كثيراً ما نسمع : إذا أردت السداد فابتعد عن العباد أو : التنظيم في اللا تنظيم .

والمشكلة ليست في وجود مثل هذه الأمثلة التعيسة ، بيننا ـ إنما في تجسيدنا لمحتواها الأتعس .

فنحن لا نعيش ـ عملياً ـ التعاون والتنظيم . بالرغم من أن كل شيء في عالمنا هذا . يصنعه التعاون والتنظيم . حتى الحذاء المتواضع ـ لم يعد يصنع بيد خفاف ماهر ـ انما ينشأ على يد الف « خفاف » وبضعة آلات .

وعودة التعاون انما هي :

أولاً : بتصفية الأفـــكار « الانفصالية » الراسبة في ذهنية الأمة .. ثم بث روح الانفتاح والتفاعل فيها .

ثانياً : ايجاد هزة قوية تكسر اغـلال النفس وتبعثها نحو العمل والنشاط . ذلك لأن بمجرد شعور النفس ـ عن طـــريق

لهزة القوية ـ بضرورة الانطلاق ـ تتجاوز تناقضاتها الداخلية. وتتغلب على مشكلات التعاون بسرعة فائقة . ولذلك لم تتم الوحدة الرصينة بين أبناء الأمم إلا عند الهزات الإجتماعية القوية .

والإسلام ـ كعقيدة ونظام وخلق ـ يحث على التعاون ـ ويقول في أكثر من موطن « وتعاونوا على البر والتقوى » ومع وجود الأيمان الصادق بالإسلام ـ تتوفر الدواعي كلها للتعاون ـ وذلك :

١ ـ لأن أمر الدين بالتعاون صريح ومؤكد ولا يسع المؤمن الصادق التسامح فيه .

٢ ـ ولأن الدين لا يأمر بالتعاون حتى يعبد سبله بتعاليم خلقية أخرى : (حسن الظن ـ تحريم الغيبة ـ وجوب نشر المعروف ـ إشاعة السلام والكلمة الطيبة) حتى تجعل المجتمع ، متواداً نفسياً . قبل أن يتعاونوا في الخارج !

(٣)

الثقافة والتنظيم والتنمية

أولاً : ما هو دور التنظيم والمنظم في التنمية ؟

يقول علماء الاقتصاد : إن المنظم يمثل العامل الديناميكي في العملية الإنتاجية فضلاً عن انه المبـــدع الرئيسي لعملية التغيير والتقدم التي هي سند لتقدم المشروعات الإنتاجية في جميع الدول [١] .

وما هو المنظم عن هؤلاء ؟

إنه حسبما يقول (هاربيسون Harbison)الشخص الإداري

---

(١) P . Alpert ' Economic Development P (157)

الذي يقوم بالعملية الإدارية داخل المشروع يقول : «بأن عملية النمو الاقتصادي عموماً لا تقع على الأرض ورأس المـال والعمل والتكنولوجيا مجتمعة وإنما ينبغي أن يكون هناك عنصر آخر يربط هذه العوامل الإنتاجية بالنسب الصحيحة ثم يبدء العمل — ويتابع هذا العمل بنجاح » .

وقد أراد بعض الاقتصاديين حذف دور المنظم — ولكن التجارب الكثيرة — أظهرت فشل هذا الرأي . ذلك لأن المنظم يقوم بعدة أعمال — لا بد من معرفتها لكي نعرف أولاً خطأ هذا الرأي ونفتش ثانياً على ضوئها عن ذلك المنظم الكفوء الذي يدير المصنع .

أما الأعمال فهي :

١ — يقوم المنظم بتقدير الظروف التي تحيط بالعمل، ويحاول تطبيق المبادىء حسب مقتضيات تلك الظروف .

وبدون المنظم الكفوء ، تبقى الخطة الاقتصادية عديمـة الجدوى ، لأنها تفقد التعيين وتكون آنئذ كوصفة علاج ليس لها صيدلي .

الخطة تقول : مثلا إذا انخفض الإنتاج - تجب مضاعفة عدد العمال . — ولكن من سيعرف لغة هذه الخطة ، ويفهم نسبة انخفاض الانتاج ومدى تأثير عدد العمال في زيادة كمية الانتاج .

في هذا الظرف بالذات ؟ ليس ذلك إلا المنظم .

إذ قد يكون إنخفاض الإنتاج آتياً من زيادة عدد العمال ـ أو نقص مهاراتهم . أو قلة الموارد الأولية ـ أو ... أي سبب آخر غير قلة عدد العمال . ولا يميز ذلك سوى المنظم .

ويتجاوز دور المنظم التطبيق النظري إلى التنفيذ العملي .

٢ ـ فهو الذي يبث روح العمل والمثابرة في الكادر العامل. ويمثل بذلك دور المحرك في جهاز المصنع ـ وشخصية المنظم هو الذي ينفذ كثيراً من الأوامر ـ إذ ان الإنسان ـ يتعامل مع نظيره الإنسان أكثر من معاملته مع الأوراق التي سطرت فيها الأوامر .

٣ ـ طبيعة العمل تقتضي ـ وجود تناقضات عديدة بين العمال ـ مع بعضهم ـ وبين الإنتاج والمواد ،بين السوق والإنتاج ـ بين الخطة والتطبيق ـ إلى آخره .

والمنظم ـ يملك ميكرسكوبا قوياً يرى من خلاله ـ الأهم والمهم ـ فيقرر ـ ما اذا كانت التضحية بقلة المادة المنتجة أفضل أم بجودتها . والاستغناء عن هذا العامل أفضل أم عن ذاك وتخفيض الإنتاج خير ـ أم تصعيده ـ أم خفض سعره وهكذا ..

ولأن هذه الرؤية لا تكون ـ سليمة دائماً. فان المنظم يتحمل مسؤلية القرار ـ وتكون عليه الخسارة .

وهذه المسؤلية هي التي تعطى المنظم حرية الحركة لأنه بقدر ما يتحمل الفرد مسؤلية قراراته ـ بقدر ما يعطى حرية العمل من جهة . وتكون له ـ من جهة أخرى ـ أرباح العمل ..

ومن هنا يعتقد (سيتوارت ميل) : « إن الأرباح التي يحصل عليها المنظم هي بمثابة تعويض يحصل عليه المنظم نظير تحمله أخطار الإنتاج » .

٤ ـ يكون المنظم الكفوء بمثابة المنظار الصافي الذي يرينا المسافات البعيدة . فهو يتطلع أبداً إلى المستقبل ـ ويضع الخطط الكفيلة بـ «غزوة» وإقتناص « الفوائد » منها مما يشجعه على المخاطرة والابتكار وأيضاً يعطيه نوعاً من التنبؤ بالأحداث القادمة .

ذلك فان كثيراً من الاقتصاديين يرون : روح المخاطرة والابتكار السمة البارزة في المنظم الكفوء .

يقول « شوبيتر » : ليس المنظم المتحمل لمخاطر الإنتاج ولا هو المدير المسؤل عن الأعمال الروتينية العادية وإنما هو الشخص الذي تقع على عاتقه مهمة الابتكار والتجديد !

وهو يعني (بذلك) إنتاج منتجات حديثة ووضع مخترعات جديدة وتعديل وسائل الإنتاج وابتكار نسب جديدة لعوامل الإنتاج وفتح أسواق غير معروفة ـ وبالتالي : المنظم ـ هو الضابط الثوري في جيش الاقتصاد .

بهذا نعرف ليس فقط ضرورة المنظم – بل وأيضاً سخافة الفكر الشيوعي ، الذي أراد إلغاء دور المنظم ـ أو لا أقل حاول التقليل من أهميته حينما الصق كارل ماركس (نبي الشيوعية !!) إلى المنظم تهمة السرقة – ولكن ما كانت النتيجة ؟ – ان الدول الشيوعية عادت وخلقت طائفة جديدة من المنظمين بل ان ـ لينين – عاد وطور هذا المبدأ واستخدم المنظمين خلال السنة الأولى – لثورته الحمراء ـ وهكذا فعل « ماو » وكتب عن ذلك مؤلفاً ، اعتذر فيه عن عدم امكانية ضرب البرجوازية الوطنية و ... لأسباب اقتصادية .

وفي مصر الاشتراكية ماذا دلت التجارب ؟؟

ينقل الكاتب الاشتراكي « صلاح الدين نامق » عن العالم الاقتصادي « هاربيسون » قوله :

إن الاختلافات في نوعية وكفاءة التنظيم تفسر الاختلافات في الكفاية الإنتاجية العمالية – فقد لاحظ بعد دراسة علمية دقيقة للمصانع المصرية التي تستخدم أحدث العدد والآلات التي تتعادل تماماً مع العدد والآلات الأمريكية أن متوسط انتاجية

العامل المصري تتراوح من سدس إلى ربع انتاجية العامل الأمريكي في المتوسط .

وهو يعزي ذلك إلى نوع الإدارة والتنظيم في المصانع المصرية الجديدة ويعتقد انها في مستوى منخفض للغاية مما أثر بدوره على عمل العامل - يقول : إن التنظيم الإداري الحديث في مصر والمبني على أسس علمية هو تنظيم نادر أو يكاد لا يوجد كذلك فان وسائل التنظيم والإدارة المتبعة هي وسائل بدائية للغاية[1].

هكذا تتبخر أفكار الشيوعية في حمى التجارب الصادقة . بيد اننا لا نكون واقعيين تماماً : لو أولينا المنظم كل اهتمامنا ونسينا - الروح الانضباطية التي هي شرط أساسي في العمال حتى يكونوا قابلين للتنظيم . وافتقاد هذه الروح في البلاد الإسلامية . عامل هام من عوامل انخفاض « إنتاجية العمال » إلى جنب افتقاد المنظم الكفوء .

وكثيراً ما تستقدم البلاد الإسلامية منظمين اكفاء من الخارج - ولكن سرعان ما تفشل كفائتهم حينما تصطدم بالكسل والفوضى واللا انضباطية الشائعة بين العمال !

مما يدل على أن التنظيم مشلول إذا لم يجد الأرضيه القابلة

---

(١) التنمية الإقتصادية ص ١٣٠ .

له ـ فمثلا ـ استقدمت أندونيسيا بعد الحـــرب العالمية خبيراً عظيماً في التخطيط الأقتصادي يدعى « الدكتور شاخت » . كان هذا الخبير المانياً ومخلصاً وعصر كل تجاربه في وضع خطة للتنمية في أندونيسيا .. ولكن هل نجحت الخطة الــتي كانت متشابهة للخطة التي وضعت في ألمانيا المهزومة بالحرب ، ؟ كلا بل عادت الخطة بخسائر كبيرة على أندونيسيا لماذا ؟ لأنهـا كانت ينقصها الروح التنفيذية يقول مالك بن نبي « إن التخطيط في البـــلد الإسلامي قد يؤدي إلى التخلي عن مكاسب بدلاً من تحقيق مكاسب جديدة ـ فعندما يتزايد الشذوذ (ويقصد به فقدان الروح التنفيذية) يتضاعف اهتمامنا بهذا الشذوذ [١] .

إذن فإننا بحاجة إلى « ديناميكية اجتماعية » تقوم بدور « المفجر » لطاقات الأمة الكامنة وآنئذ يكون المنظم الكفوء قادراً على القيام بدوره ـ أفضل قيام .

والأهم من كل ذلك : إن الانضباطية في العامل تخلق الكفائة في المنظم إذ الحاجة أُم الإبداع ـ فما دام الرئيس يرى ان الأفراد يطيعونه ـ يتحسس بثقل المسئولية على كاهله فيعصر نفسه عصراً حتى يصبح كفوءاً لتحمل هذه المسئولية .

---

(١) مشكلة الأفكار في البلاد الإسلامية ص ١٥٠ .

الاسلام : والتنظيم الخلاق :

والإسلام يركز اهتمامه - بهذه النقطة التي هي محور الدائرة حين يقوم - بخلق جو يوصي بالتنظيم ثم يغرس في هذا الجو - المناسب - ملاكات منظمة .. ولكن كيف ذلـــك ؟ لنتابع خطوات الإسلام منذ البدء :

١ - ينمو الطفل - في المجتمع المسلم - في جو تسوده الطاعة إذ في محيط الأسرة يكاف أعضاؤها بطاعة الأب. وكذلك تصبح الطاعة عند الوليد تقليداً مقدساً .

٢ - ويلاحق الإسلام هذا الطفل - ليقول له - مرات - ومرات - أطع والديك .

٣ - وحيث تتوسع الأسرة ، لتتحول إلى قبيلة - تبقى الطاعة للجد - سمة عامة تطبع الحياة الاجتماعية بطابع الإنضباط .

٤ - وفي الحياة الاجتماعية يوصي الدين باتباع المعلم وولي الأمر والناصح . و . و ..

٥ - والتعاليم الإسلامية : توصي - هي الأخرى - بضرورة الطاعة - مثل - الصلاة - جماعة . والحج - و . و .

٦ - وتتلو هذه التعاليم : أوامر مؤكدة بضرورة تنظيم كل

الشؤون من قبيل قول علي عليه السلام « الله الله في نظم أمركم » .

بهذا يشبع الجو العام بالأنضباط في النفس – بالاضافة : إلى ما يتسم به الإسلام من تفجير روحي هائل ـ داخل النفوس ـ حسبما بينا سابقاً .

وبعد ان يصبح الجو ملائماً لظهور كفاءات تنظيمية قديرة . ـ يخطط الإسلام لذلك ـ ويقرر ما يلي :

١ ـ يشكل مدرسة اخلاقية تصنع «الشخصية القائدة» وبفضل هذه المدرسة : استطاع الإسلام تكوين قادة مثاليين ـ في فجر الإسلام ـ حكموا البلاد سياسياً واقتصادياً. والتعاليم الإسلامية في الخلق والسلوك تعاليم مثالية في قدرتها على بناء مثل هـــذه الشخصية . وليس من ريب : أن لهذه التعاليم آثاراً أبعد مما يتصور فمثل هذه التعاليم هي التي خلقت ملاكات تنظيمية في اليابان اذ أن نظـــام « الساموراىى » بتقاليده العريقة وصفاته الإدارية الأصلية هي المدرسة التي خرجت طبقة المنظمين للصناعة اليابانية (١) .

٢ ـ وبعد مدرسة الأخلاق يفتح الإسلام أمام الأمة مدرسة الحياة ـ ويشجع الناس على التجارة والسياحة ـ ويعطيهم الحرية الكافية في ذلك ـ

---

(١) المصدر ص ١٣٣ .

والحرية السياحية والتجارية – هي المدرسة التي خرجت للولايات المتحدة – حسب رأي (كندليدجر –) – المنظمين الصالحين .

٣ – ولكن يجب ألا نكتفي بالمدرسة الخلقية والحياتية الإسلامية . لا بد ان نبني « مصنعاً » آخر للملاكات التنظيمية : بتوجيه الأمة نحو العلوم التنظيمية . وجعلها مادة أساسية في مناهج التعليم . وذلك مثل علم الإحصاء والتخطيط . وعلم الإعلام وعلم العلاقات العامة ، كل ذلك بالرغم من أن بعض هذه العلوم لم تدخل في المفهوم الحديث « للعلم » ولكن المهم ابتكار وسيلة جديدة لصنع الكوادر القائدة .. حتى ولو استلزم ذلك « صنع» علوم جديدة.

(٤)

بين الثقافة و الاستثمار

ان هناك تناقضاً ظاهراً بين التقدم الاقتصادي وبين الاستهلاك من جهة • والاستثمار في الخارج من جهة ثانية • وهذا التناقض يسبب عقبة كأداء في طريق التنمية . لا تتجاوزها الأمة بدون وعي جماهيري عريض ؟ كيف تتكون هذه العقبة ••• ثم كيف تذلل بالوعي – اليك تفصيلاً بذلك :

١ – لقد اثبت التاريخ الاقتصادي للدول التي قطعت بالفعل مراحل التقدم انها لم تستطع الوصول إلى مـــا وصلت اليه – من دون استثمار كميات هائلة من إنتاجها القومي بصورة مستمرة بينما الدول المتخلفة تعاني من عدم وجـود رأسمال قومي يمكن استثماره في المشاريـع الانمائية • وذلك يعود إلى عدة أسباب منها ضحالة المدخرات التي من الضروري توفرهـــا في هذه الدول•

يقول البروفسور « رستو » اعتماداً على دراسات اقتصادية واسعة أن أقل نسبة من المدخرات الصافية التي ينبغي توافرها في الدول النامية لإحداث التنمية المتوازنة لا ينبغي أن تقل عن ١٠ ٪ من اجمالي الناتج القومي • بينما تبلغ – في اندونيسا – مثلا ٣ ٪ – فكيف يمكنه إحداث التنمية المطلوبة ؟

٢ – هذا لا يعني عدم وجود ناتج قومي مناسب يمكن أن يتحول إلى رأسمال ضخم يستخدم في الاستثمار والتنمية . لا يعني ذلك • بقدر مايعني التفريط في هذا الناتج – للجهل بمتطلبات المستقبل – إذ ينفق هذا الناتج – فور ما يصل لأيدي الشعب على السلع الاستهلاكية التي تستخدمها الطبقة الفنية تقليداً لمثيلتها في الدول الراقية يقول البروفسور « نوركسي » إن سلع الإستهلاك الترفيهية تصل إلى الدول المتخلفة اليوم في سهولة ويسر عن طريق الاستيراد من الخارج ولا يمكن ان تصنع داخلياً وهنا تبرز المشكلة فشعوب الدول المتخلفة تعلم كل شيء عن هذه السلع الإستهلاكية الترفيهية وتراها رأى العين معروضة في المحلات التجارية الكبيرة أو في المحلات الأجنبية المصدرة وفي الأفلام السينمائية الاجنبية التي تصل إلى هذه الدول ومن هنا تعمل الشعوب النامية على اقتنائها بشغف بالغ وهي بالفعل تقتنيها – في أحوال كثيرة – ومن ثم يزيد الميل إلى الإستهلاك الامر الذي يؤدي ولا شك إلى الإنقاص من المدخرات الفردية التي تتمتع بها هذه الطبقات » .

إن مشكلة الدول النامية ، هي هذه المبالغ الطائلة من الدم النقي الذي ينزف من جسمها النحيل ، على شكل ـ أثمان لمواد استهلاكية ترفيهية أو كمالية .. فكيف يمكن وقف هذا النزيف؟ الواقع إن الوعي أفضل جواب على هذا السؤال إذ أنه يحافظ على حرية الشعوب و كرامتها من جانب ويفك التناقض الحاد بين الإستهلاك والإستثمار من جهة ثانية .

إننا يجب أن نربي أجيالنا الصاعدة على الإيثار والتضحية على العمل الجاد في سبيل المستقبل البعيد على شد البطون لفترة طويلة قد تستمر بضعة عقود من الزمن ، وأخيراً نربيهم ، على إزدياد ساعات العمل وتقليص فترة الإجازات .

وليعلم أن الدول المتقدمة ، زهدت في المواد الإستهلاكية لبضعة سنين ، فأصبحت اليوم قوية عزيزة وعلينا أن نزهد اليوم قليلاً حتى نحظى بالعز والرفاه في المستقبل .

الاسلام والادخار :

ويهيء الإسلام الناس للإدخار ثم يتخذ عدة اجراءات منها أنه :

١ ــ يمنع الإسلام الإسراف ويعتبره خطيئة تجعل من عاملها في مستوى ابليس « ان المبذرين كانوا اخوان الشياطين وكان الشيطان لربه كفورا » .

ويكون الإسراف نسبياً. وخاضعاً للظرف الإجتماعي الذي يقع فيه - ففي مجتمع يموت بعضهم جوعاً يكون تبديل ،طراز السيارة كل عام اسرافاً قبيحاً . وفي مجتمع نصف أعضائه بلا مأوى يكون اقتناء قصر ضخم تبذيرا مكروها ، وهكذا ... وقد نبه الإسلام إلى ذلك حينما قال الرسول «ص»: « ملعون ملعون من بات شبعاناً وجاره جائع »

٢ - وقد جعل الإسلام - عقوبة صارمة لمن يتعدى حدود الإسراف ويبدد أمواله تبديداً - هي : مصادرة ممتلكاته جميعاً قال سبحانه : «ولا تؤتوا السفهاء أموالكم التي جعل الله لكم قياماً و ارزقوهم فيها واكسوهم وقولوا لهم قولاً معروفاً النساء / ٥ » .

إن الهدف المنشود من وراء المال لا يتحقق بالتبذير . ذلك لأن المال واسطة حركة لدولاب الإقتصاد.

وقد عبر عنه القرآن بكلمة « قياماً » يعني أن قيام الحركة الإقتصادية إنما هي بالثروة . وكل شيء لا يحقق هدفه - فهو باطل يجب تبديله .

٣ - ثم يضع الإسلام مبدء قانونياً عاماً هو مبدأ الضرر - ويقول « لاضرر ولاضرار » وهذا المبدأ - يعطي المجتمع المسلم ومن ورائه الدولة الإسلامية الحق في وضع قوانين

رادعة ، عن الإستهلاك فيما إذا أضر بمستقبل الأمة من قريب أو بعيد مباشرة أو بغير مباشرة .

٤ ـ كل ذلك ـ يفعله الإسلام ولـــكن لا يلجأ اليه كحل نهائي حاسم انما الحل النهائي يتركز في تعاليمه الخلقية المقدسة التي تدفع الإنسان من درك الشهوات العاجلة الى مستوى المصالح البعيدة . وبذلك يكون للأمة وعياً إقتصادياً شاملا .

الاعتماد على الرساميل الوطنية

هل ذلك ضروري لتقدم الإقتصاد أم يمكن لهذه الدول الإعتماد على الرساميل الأجنبية في ذلك ؟

الخبير الإقتصادي ـ ينفي بوجه قاطع اي فرق بين الرأسمال الوطني والأجنبي لأنه ينظر إلى الأمر من زاوية اقتصادية بحتة ـ يستشهد بحال أمريكا في فجر انطلاقه الإقتصادي حيث اعتمد على رؤس الاموال البريطانية و الالمانية والفرنسية. وايضاً يستشهد باوضاع كثير من الدول النامية التي لا تزال تعـــتمد على الإستثمارات الاجنبية .

ولكن العالم السياسي يعرف كيف يتحول الدولار الى سلاح غادر ـ وكيف يستخدم هذا ليس في قتل جراثيم التخلف ـ والفقر بل في قتل الشعوب المتخلفة ـ الفقيرة.

لذلك يرفض بشدة ربــــط الإقتصاد الوطني بالإستثمارات الأجنبية .ولكن دون أن يوصى بالإستغناء عنها كلياً .

وحتى الخبير الإقتصادي لو أوتي رؤية بعيدة المدى لعرف أن الإستثمارات الاجنبية ليست سوى مصيدة يصعب على الدول النامية الإنفلات من اغلالها !!

لهدا يجب أن نركز الإهتمام في الاستثمارات الوطنية ، ولكن تقف أمامنا عقبة تتلخص في تفضيل الطبقة الغنية ، الإستثمار في الخارج على الإستثمار في الداخل مما يسبب هروب الأموال الى الخارج .

وقد تشكل هذه العقبة ، وضعاً خطيراً للغاية بالنسبة إلى بعض الدول النامية ، حيث تعيش أكثر من ٩٠٪ من ثروتها في الخارج، بينما يحتاج أبناؤها إلى كل قرش منه !!

هروب الرساميل هَمُّ الساسة :

ولمواجهة هذا الوضع ـ تؤمم بعض الدول النامية مواردها ـ وتصادر ثروات الطبقة الغنية وتعلن الإشتراكية ـ فهل يمنع ذلك من تهريب الأموال كلا بل يزداد الأمر سوءً ـ لأن الوضع الخطير هذا يشجع الطبقة الغنية على الفرار برؤوس أموالها ـ

حتى الثمالة وإلى أن تتمكن الدولة من وضع اليـد على بعضها قد تمكنت اصحابها من إيداع الأكثر في بنوك الغرب .

ولفساد الأجهزة في الدول النامية ـ لا تستطيع الحكومة من ايقاف « هجرة الثروات » بل وقد تشارك الأجهزة المختصة في عملية تهجيرها لقاء رشوة أو قرابة .

وفي الفترة الأخـــيرة تعرضت بعض الدول الاشتراكيـة لخطر أكبر حيث تكونت فيها طبقة « البيرقراطية » التي ورثت من طبقة الأغنياء – مقاليد الثروة . وأخذت تهرب ما تستطيع تهريبه إلى البنوك الأجنبية بأمـــل أن تعيش عليهـــا في المستقبل وكان ذلك نتيجة طبيعية لاطلاق يد هذه الطبقة في الحكم بالتأميم فعملية التأميم ليست سوى الجمرة التي يستجار بها من الرمضاء فلا بد من حل آخـــر .

ما هي العوامل ؟

يأتي الحل بعد معرفة العوامل التي تكمن وراء هـروب الثروة إلى الخارج ، فما هي :

١ ـ يعمق توزيع الثروة غير العادل من الفجوة الموجودة بين طبقات الأمة وتنعكس آثارها السيئة على الوضع الاقتصادي وأبرزها ـ ضعف القوة الشرائية لدى الأغلبية الساحقة ـ وذلك عامل أساسي لضعف الانتاج الوطني وأبسط الأمثلة على ذلك انه في كولومبيا ـ وهو من البـــلاد النامية ـ لا يوجد مصنع للمصابيح الكهربائية ـ فذهب إليه وفد من البنك الدولي للانشاء

والتعمير ـ لبحث إقتراح لإنشاء مثل هذا المصنع . ولكن الوفد عاد يحمل معه التقرير التالي : ـ إن أصغر مصنع آلي إذا عمل ثلاثة أشهر فقط فإنه يكفي مطالب كولومبيا لمدة سنة ويرجع ذلك إلى ضعف السوق المحلي نظراً لانخفاض القوة الشرائية لدى جماهير الشعب ورد لذلك هذا الاقتراح [1] .

٢ ـ وتخلف الدول النامية يضاعف من تكاليف الانتاج إذ أن ضعف انتاجية العمال ـ وقلة الكفائات الفنية والتنظيمية وردائة المواصلات ـ و ٠ و ٠ كل ذلك يسبب قلة الأنتاج . وزيادة تكاليفه ويقلل بالتالي الأرباح .

٣ ـ ولأن الدول النامية تفتقد الدراسات الموضوعية من الصناعة ـ فإن الأثرياء لا يغامرون بأموالهم في الأستثمار فيها .

٤ ـ وأهداف الأثرياء عندنا محدودة ٠ وتطلعهم قريب . ولذلك هم يرضون لأنفسهم بالأرباح الضئيلة التي يحصلون عليها لقاء الاستثمار في الخارج ـ أو لقاء إيداعهم ثرواتهم في البنوك الأجنبية : انهم يفضلون كل ذلك على إنشاء مشاريع صناعية تتحول إلى مؤسسة اقتصادية تفيض على البلاد بالخير والرفاه .

---

(١) I. B. R. D. The Basic of a Developmcnt Pregram for Clombia ,, Balimore 1950 p 93.

هذه هي الدوافع التي تكمن وراء « هجرة الرساميل » فكيف يمكن تثبيت الدوافع ؟

ببساطة: التوعية الثقافية أفضل وسيلة ممكنة لذلك .

فإذا عرفت الطبقة الثرية أنها مسؤولة عن تخلف بلادها وأدركت مدى الأضرار التي قد تنجم من بقاء هذا التخلف - فإنها تفضل - آنئذ تشغيل ثرواتها داخلياً. على الأرباح الطائلة والمضمونة التي في الخارج .

إن التنمية يجب أن تصبح « تطلعاً » جماهيرياً يتحمس لها كل فرد منا - ليصبح العمل بمتطلباتها واجباً وطنياً مقدساً ويُصبح العكس جريمة نكراء يعاقب عليها ضمير الإنسان ذاته ثم جميع أبناء الأمة .

وبعد أن تتم التوعية. يأتي الدور لسائر العوامل المشجعة على الاستثمار الداخلي . مثل الاستقرار وعدالة توزيع الثروة. و.و. أسباب أخرى نتحدث عنها بإذن الله .

(٥)

الثقافة ونزيف الكفاءات

أصبحت هجرة الأدمغة مشكلة البلاد النامية. التي استدرت عطف الخبراء . وجعلتهم يتساءلون بأسى : كيف يمكن وقف هذا النزيف الشديد. الذي يعني ـ بكل بساطة - موتاً اقتصادياً مقسطاً ؟

والحقائق التالية تكشف عن مدى خطورة هذا النزيف المجنون .

١ ـ « إن الاحصاءات الدقيقة تدل على أن عدد المهاجرين إلى الولايات المتحدة الأمريكية من المهندسين المصريين في الفترة ١٩٦٢ /١٩٦٧ بلغ ٨٩ مهندساً وإلى كندا ١١٦ وإلى فرنسا ٤٤. أما عدد العلماء المصريين المهاجرين إلى أمريكا في ذات الفترة فهو ٥٧ وإلى كندا ٦٨ وإلى فرنسا ١٣ .

كما أن عدد علماء الاجتماع المصريين ـ ١٣ هاجروا إلى أمريكا و ١٧ إلى كندا - وعدد الأطباء ٩١ هاجروا إلى أمريكا و ١٠٠ إلى كندا في ذات الفترة .

واستراليا استقبلت بين ١٩٦٦ / ١٩٦٧ ، ١٢٨٥ مهاجراً مصرياً و ١٨٠٠ مهاجراً لبنانياً .

وتقول الاحصاءات أيضاً أن ٥٠ ألف شخص من ذوي الكفاءات قد هاجروا خلال ١٩٦٧ من الدول النامية . إلى الدول المتقدمة !

وقد يبدو ذلك بسيطاً بادىء الرأي . بيد أن حقيقتين تجعلنا نذهل أمام ظاهرة الهجرة. الأولى : إن البلاد النامية بحاجة ماسة إلى الكفاءات . وهي بدلاً من أن « تزرق » بالمزيد من هذا الدم « ينزف » المزيد منه لكي يصب في جسم يطفح بدم (الكفاءات). الحقيقة الثانية : - إن تكاليف «صنع» كفائة علمية تبلغ في الدول النامية ٢٠ ألف دولار [1] تخسرها تلك البلاد التي هي بحاجة إلى كل قرش واحد ويربحها ـ في المقابل ـ تلك البلاد التي ليست لثروتها حدود .

---

(١) محاضرة البروفسور مالكولم أويستيا الهندي نائب المدير العام لمنظمة اليونسكو ـ ألقيت في جامعة الدول العربية بالقاهرة عام ١٩٦٩ .

وإذا عملت العقول الاليكترونية لتفصح لنا عن لغة حسابية ، تبين مدى الخسارة التي تلحق بلادنا من جراء « هجرة الكفاءات » لقالت لنا : بكلمة « لا تحصى الخسارة » إذ ليست الخسارة في فقدان ٢٠ ألف دولار عن كل دماغ « مصنوع » بل تتجاوز ذلك إلى ابعاد أُخرى مثلا : إن لكل دماغ فكرة خاصة قد تفيد مستقبل البلاد بما لا يتصور من المنافع العظيمة.. أو ليس تقدم الامم إنما هو بنسبة المفكرين فيها ؟ من هنا :

يقول (روبير شومان) وزير البحث العلمي الفرنسي سابقاً: أن مائة ألف عالم قد هاجروا إلى الولايات المتحدة الأمريكية منذ نهاية الحرب العالمية الثانية ويعتقد أن هؤلاء قدموا للولايات المتحدة (رأسمالاً بشرياً) تعادل قيمة ما وزعته أمريكا على الأقطار الأجنبية منذ نهاية الحرب حتى عام ١٩٦٨ وذلك على أساس من أن كلفة تحضير كل عالم هي عشرون ألف دولار ،وهذا يعني خسارة الدول النامية بـ (ألفي مليون دولار) . وهو رقم كبير !!

ونتيجة هذا الوضع ـ تبقى بعض الدول النامية تعاني من عدم الكفائة ـ بينما تتهرب كفائاتنا إلى الخارج فمثلا إيران وسوريا بحاجة إلى أطباء بينما يفوق عدد الأطباء المهاجرين من كل واحد منهما إلى أمريكا ـ يفوق عددهم عدد الموجودين في بلادهم بل ان عدد الأطباء الايرانيين العاملين في ولاية نيويورك فقط

يفوق عدد كل أطباء إيران . فكيف بسائر الأطباء الايرانيين المهاجرين إلى غير هذه الولاية ، من أقطار أمريكا وأوربا .

كيف العلاج ؟

وصفة العلاج التي تعطى عادة لمرض النزيف في الكفاءات ـ العلمية ـ تتضمن عدة عناصر سنتلو بعضاً منها ـ ولكن تغفل هذه الوصفة أهم شيئين لا يمكن أن تفيدنا بدونهما سائر المـــواد العلاجية فأولاً : ما هما هذين الشيئين ـ وثانياً : ما هي سائر العناصر ؟

١ ـ الذي يذهب إلى بلاد أجنبية ويختارها لبقائه الدائم ، تاركاً ورائه كل علاقة تربطه بأهله وصحبه ومفاتن وطنه ـ لا بد أن يكون قد انفصل نفسياً عن ماضيه ثم أخذ يكرس هـــذا الانفصال عملياً ، في هجرته عن بلاده .

والعلاج المناسب لهكذا إنسان ربطه نفسياً بواقعه ، وفصله عن واقع الآخرين ، وجعله بالتالي يشعر بانتمائه إلى أهلٍ وإلى أرض وإلى تاريخ ومستقبل .. وهذا ما يجب توفيره في مناهج التعليم في البلاد .

والتوعية الدينية لا ريب تشكل عنصراً هاماً لربط الشخص بأهله ووطنه وماضيه ومستقبله ، ذلك لأن الذي يفضل خدمة

الأجانب ، وربما الأعداء ، على خدمة الوطن لقاء زيادة بسيطة في الثروة أو الراحة . هو إنسان ناقص يجب العمل على تكميله لأنه يقدم مصالحه الشخصية على مصالح بلاده العامة .

ولا تتقدم امة بدون كفاءات تفضل مصالح الأمة على المصالح الشخصية ذلك لأنه حتى لو كدسنا الكفاءات التي تعبد «الذات» وتنسى كل شيء إلا مصالحها الخاصة ، لو كدسناها في بلادنا فهل تحدينا شيئاً؟ كلا : إذ أن أي دور يُعهد إليها تؤديه تماماً ، بل يتسرب إليه الفساد واللامبالاة .

إذاً يجب غرس القيم المثلى في نفوس أبنائنا وآنئذ نجعلهم يذهبون أنـّى شاؤوا .

٢ – أساساً لماذا لا نصنع الكفاءات العلميـــة «محلياً» لماذا يجب على الطالب أن يقضي خيرة أيامه في أوربا أو أمريكا أو روسيا . وهـــو يتعلم تقاليدهم ويتطبع بسلوكهم ويستهويه أسلوب حياتهم .

لماذا كل ذلك . أو ليس من الأفضل تربيـــه الكفائات في أحضاننا ، حتى تنمو معنا وتتأثر بأجوائنـــا ، ولا تنفصل عن ماضينا ، ولا من همومنا في المستقبل .

إن أخطر مشكلة واجهتها الدول الإسلامية في مطلع هذا

القرن تمثلت في التناقض الذي أوجـــده الموفدون إلى الغرب والذين عادوا بقيم ومناهج وعقليات غربية كانت بعيدة جداً ، عن قيمنا ومناهجنا .

واليوم خفت حدة هذا التناقض واستطاعت الأمة أن تثبت أصالتها . ولكن بقيت جذور السبب الذي أوجد التناقض مستمرة ، وقادرة على احداث بلبلة فكرية .

فما هي جذور السبب ؟ البعثات العلمية التي تذهب لتتلقى العلم فتعود وقد تلقت التربية الغربية . واقتبست مفاهيم ناشزة عن وطنها شرها أكثر من خيرها !! إن هذين هما أهم عاملين ، يجب أن نلاحظهما لدى معالجتنا لمشكلة الهجرة . وقد أهملهما الكتاب الاقتصاديون ، وهناك عدة عوامل ركزوا عليها ، وزعموا أن معالجتها تكفيهم مؤنة الهجرة ونحن نتعرض لها بإيجاز :

١ ـ يجب أن نوفر جو الكرامة اللائقة بمكانة الكفاءات فلا نحاول ، كما نفعل اليوم ، ربط الكفاءات العلميـــة بتيارات سياسية ،أو حتى اصلاحية تمتص طاقاتهم وتعرضهم للمخاطر .

٢ ـ يجب أن نحترم الكفائة دون أن ندخل في حسابنا اعتبارات زائفة كالطائفية والطبقية والإقليمية .

انني أعرف كثيراً من المهاجرين فروا من جو التمايز الطبقي أو الطائفي السائد في بلادهم ، بالرغم من أننـــا لا نعذر هؤلاء لأن وجود مفاسد اجتماعية لا تدعو إلى الفرار من مسؤولية بل تستوجب البقاء والنضال من أجل اصلاح الواقع .

٣ ـ الرواتب الـــتي تدفعها الدول النامية لأبنائها من ذوي الكفاءات قد تقل عن تلك التي تدفعها الدول المتقدمة . بأكثر من نصف مما يشجع هؤلاء على الهجرة، طلباً للمزيدمن الرواتب.

٤ ـ كثيرون من ذوي الكفاءات العلمية ، يتطلعون إلى مراحل دراسية متقدمة . فيفضلون الدول المتقدمة حيث يمكن لهم تكميل دراستهم جنباً إلى جنب قيامهم بأعمالهم العادية بينما لا يوجد في بلادنا شيءٌ من ذلك .

٥ ـ إن العلماء في البلادالمتقدمة يمكنهم ملاحقة التطور العلمي الذي يطرأ على فروعهم الإختصاصية ، مما يسمى بـ (صيانـــة الكفائة) ولا يوجد مثـــل ذلك لدينا فإذا بالعالم ، بيننا يردد نظريات بالية أكلها وتقيئها الزمن لأنه لم يتابـع تقدم العلم خلال فترة طويلة .

لذلك يجب فتح دورات تكميلية في الدراسات العلمية لصيانة الكفاءات من « التخلق » وحفظها من « التخلف» وإذا أمكن يجب فتح صفوف للدراسات العالية وتشجيع الكفاءات

للانخراط فيها . إما عن طريق اجراء رواتبهم خلال أيام الدراسة أو التوفيق بين دروسهم وأعمالهم !

٦ ـ واخيراً تنقطع الصلات بين الطلاب وذويهم خلال أيام الدراسة فتعمق الهوة التي تفصل ذهنيتهم عن ذهنية أبناء وطنهم وتتفاعل ، بنفس القدر ، نفسياتهم مع ظروفهم الجديدة في المهجر ، هذا الوضع يشجعهم على البقاء فيه لأنهم أصبحوا أكثر إنسجاماً مع ظروف المهجر .

من هنا يجب تكوين جمعيات تربط بين البعثات العلمية وبين أوطانهم ، بمختلف الطرق الممكنة بالرسائل ، بالمجـــلات ، بالاعلانات برحلات مؤقتة إلى أهلهم .. وهكذا .. حتى يستطيع الحد من نزيف الكفائات الذي يعني موتاً بالتقسيط .

المحتوى

هذا الكتاب

لافتقار المكتبة الاسلامية الى مثل هذه الدراسات زعم الكثيرون ــ وربما يكونون من المفكرين الاسلاميين ــ بان الاسلام فقير الى «مناهج في التنمية» بينما هو ــ كما سيلاحظ خلال دراستنا هذه ــ أيسر المناهج وأسرعها انجازاً للتنمية من النظم المادية، لأن الاسلام يثير جميع الدوافع الانسانيه ــ العاطفية والعقلية والروحية ــ ويوظفها في اشاعة الرخاء، ويشرع للحياة الاجتماعية نظماً من شأنها ان تيسر عملية النمو الاقتصادي، ويسن للحياة النفسية مناهج تربوية من شأنها اذابة العقد النفسية والصفات الرذيلة التي تقف عقبة في طريق العمل الايجابي البناء.